الهيئة العامة السورية للكتاب دار البعث

وهجُ رُوح

ريم عبد الغني

تقديم

د. رياض نعسان آغا

الكتاب الشهري التاسع عشر

مقالات أم مشروع رواية؟

د. رياض نعسان آغا

حين قرأتُ أولى مقالات السيّدة ريم عبد الغني في مجلّة المرأة اليوم (الظبيانيّة) اكتشفتُ أنّ لديها مخزوناً أدبيّاً جديراً بأن تغرف من مخبوئه، وأن تقدّمه للقرّاء، فقد وشتْ تلك المقالات التي كتبتْها عن اليمن بشعريّة عذبة رقيقة وقدرة بارعة على الوصف والتخيّل، وأحسبُ أنّ تجربتها في فنّ المقالة قد كشفتْ عن مخبوءٍ آخر في أعماقها، هو قدرتها على السرد القصصي، فبعض مقالاتها قصص قصيرة بارزة الحدث، واضحة الشخصيّات، تعيد بناء الحياة من نافذة كونيّة، والإطلالة على الكون بمعناه الأرحب هو ما يجعل تجربة ريم جديرة بأنْ تُقرأ، فَصِلَتْها بالكون تمنحها هذه الشعريّة الحميّمة، وتلك الرؤية المتّسعة للتفاصيل بمقدار قدرتها على الاختزال الذي يُمكّنها من إلقاء القبض على اللحظة الهاربة من حياتنا، وتحويل عبيرها الباقي إلى ينبوع طيّب يضوع في الذاكرة، وهي تكتبها كي تضمن لها البقاء.

إن أهميّة هذا الكتاب تتجلّى في كونِه سرداً لطيفاً تكتبه أديبة مهندسة مهتمّة بالتراث العمراني، وأجدُها تهندس مقالاتها بذوقٍ رفيع، وحسّ مرهف، وهي تبني معمارها السرديّ على شيءٍ من الاستحياء الأدبيّ، فهي تنثر الأفكار دون أن تحبسها في إناءٍ فضيّ، وحسْبها فيها الرابط الكونيّ، وهي تنشر ثقافتها في أرجاء النص، وتقدّم التأمّلات الشخصيّة تجربة عامة تخطف القارئ إليها لأنّه عاش مثيلاتها، ولئنْ كانتْ ريم تقدّم رؤية متقدّمة تعبّر عنها الكاتبات السوريّات فإنّ لها مزيّة كونها سوريّة ويمنيّة في آن، وأجدُ في كتاباتها ما يكشف عمق التواصل بين سوريّة وبين جذر العروبة اليمنيّ، وفي كثير من مقالاتها يتنفّس الجمال الذي اعتدنا على رؤيته وأَلِفَتْهُ أعيننا حتى بتنا بحاجة إلى إعادة اكتشافه، وقد أخذتنا ريم مرّاتٍ في رحلات تأمّلية له عبر أنشطة مركزها (تريم للعمارة والتراث) لنراه بعيون الدهشة والفرح، كأننا نراه لأوّل مرّة فنصل إلى ذروة الإحساس بمتعة الفن والإبداع، وقد أضافت لغة ريم العذبة ورؤيتها الشفّافة، قيمة جماليّة أخرى للنصّ الذي كتَبَتْهُ، وللمكان الذي استَلْهَمَتْهُ.

الكون . . . من نافذتي

أتُراه كان حلماً خفيّاً... متوارياً في عقلي الباطن... أن أصير يوماً كلمات يقرأها الآخرون؟...

لم أكتبْ أبداً كي أُقرأ.... ولم تكن الكتابة بالنسبة لي إلا ملاذاً أسكبُ فيه – دون خوفٍ أو خجل – جداول مشاعري الدافقة.

وأنّى عزمتُ على الرحيل... كان أوّل ما أحزمه في حقائبي... خواطري المنثورة على أوراق متنوعة... بعضها أبيض وبعضها ملوّن... وقد تجدها مكتوبةً خلف أوراق محاضرة جامعيّة أو حتى على ظهر تذكرة سفر... أيّ مدى حانٍ استوعبتْ رحابته أحاسيسي... في مكان ما وزمان ما.

وجدتُ الكتابة بلسماً... جنّبتني خيبات أمل من لا يحالفهم الحظ في اختيار الأصدقاء الثقات، إذ طالما كانت موضع سرّي وجليستي المفضلة. وإذا كنتُ قد احتفظتُ بكلّ كتاباتي، حتى تلك التي ولدتْ من هنيهات الهذيان... فلأنّها كلّها أنا... في لحظات الضعف والقوة... والتجلّي والغيبوبة...

تزداد متعتي وأنا «أقرأني» بعد زمن، يُضحكني ويبكيني ما تختزنه من صور مراحل مختلفة من حياتي وحياة أصدقاء وأحبّاء.. بعضهم لم يعد ممكناً أن ألقاه إلا بين هذه الكلمات.

للأسف، ضاقتْ مساحة الكتابة مع اتساع مشاغل الحياة وتسارع إيقاعها، ولكنني حرصتُ أن أكتب باستمرار كي أتوازن، كنت أشعر بغربة حقيقيّة حين أتوه عن وريقاتي ولا يعيدني إلى ذاتي إلا هي وقلم...

ولأنّي "أُقطّر" روحي بين دفّاتها، بقيتْ دفاتري عالمي الحميم الذي لا يدخله أحد دون استئذان، احترمَ الجميع خصوصيتها مع أنّها رفيقتي في كل مكان، وقد تجدها على طاولة الطعام، أو منسيّة فوق مقعد السيارة، أو تتعثّر بها قرب السرير، لا... لم أحتج أبداً أن أخبّئها في دِرج أو تحت وسادة.

* * *

مرّات عدّة ... سنحتْ لي الفرصة لنشر ما أكتب، لكنني لم أستسغ فكرة عرض ما في داخلي أمام من أجهل، ما الذي نضج أو تغيّر أخيراً؟... لستُ أدري... راقتني الفكرة فجأة... خطوتُ إليها على وجل... خلتها تجربة عابرة... أخوضها حيناً... فأوصد باب الندم على ما لم أعرف، لكن التجربة – على غير توقّعاتي – استمرّتْ... أخذتُ استمتع بها حقاً، ولعلّ أكثر ما شجّعني تلك الرسائل التي تلقّيتها تعقيباً على مقالاتي من أنحاء عالم حوّله البريد الإلكتروني قرية صغيرة... فاجأني أن أجد صدايَ الحقيقي في كلمات من لم ألتقِ بهم أبداً، لكنهم قرأوا **أصدق** ما فيّ... كما هو... بلا تزييف أو مقدّمات... في تواصل صادق للقلوب، أليس من يقرأ أعماقك ويستشعر موجاتك... يسبح في ذات عالمك، قادر أن «يسمعك» و«يراك» حتى لو لم يسمعك أو يرَك قط؟، وقد نعيش عمراً مع من اعتقدوا أنّهم سبروا أغوارنا وعرفونا حقيقة، ولكننا عجزنا عن أن نوصل لهم آهة حقيقيّة واحدة... لأنّهم لا «يسمعون» تردّداتنا الخاصة...

لذا... كنتُ أفرح برسائلهم كطفلة... بمتعةٍ أعيد قراءتها... مرّات ومرّات... تشحنني إصراراً على المواصلة، ومن أعماق قلبي... لمن كتبوا لي جميعاً... من كلّ مكان... خالص الامتنان، فرسائلهم ومضات سحريّة أحالتْ قوقعتي كوناً واسعاً أحلّق فيه كما أشاء.

* * *

و... اتّسع عالمي وتلألأتْ ألوانه بريقاً وبهاء... لم أعدْ أكتب على استحياء... انطلقتُ فرساً جامحاً أصهل بحريّة في براري واسعة، تنحسر غربتي يوماً بعد يوم ويزداد تفاؤلي، فأتحدّى إيقاع أيّامي المرهق واختلق واحة بين زحام الأوقات لأكتب... أتنفّس من مسام الكلمات التي تتناغم كافّة حواسي بصياغتها، أعيش في كل مقال أكتبه تجربة رائعة تصهر معاناتها مساحات اليباس في داخلي، تتجمّع حروفها ندىً يبثّ الاخضرار في آفاق طالما أرهبتني وحشتها وغموضها، فأحتويها كلّها بين ذراعيّ...

* * *

وبعد عام استرقتُ فيه لحظات الكتابة استراقاً... قررتُ أن أجمعها – كتاباتي– كي لا تضيع بين ركام أوراقي وزحام أيامي...

كان من الصعوبة عليّ بمكان أن أرجع إلى ما كتبته، وأعيد توليفه في باقة واحدة... لأنّ ما ينضح من أعماقنا في لحظات المعاناة الصادقة، يصعب علينا أن نعيد تقييمه بموضوعيّة... فهو يوقظ فينا الأحاسيس التي نزفها قلمنا حبراً ذات يوم... فنعيشها ثانية... عبر كلمات تمتلكنا ولا نمتلك لها قياداً...

وبما أنّ قيمتها الأكيدة في صدقها وعفويتها... لذلك –وبعد طول تفكير وتردّد– جمعتها كما هي... دون تعديل... صور باقية للحظات هاربة... أفكار عبرتني فعبّرتُ عنها... أغلقتُ عليها هاتين الدفتين... لتفتح نافذة على كوني، بل في الواقع نوافذ...

«**وهجُ روح**» نافذة تطلّ على عالمي الحميم، حيث أودعتُ بعض كنوز الذاكرة، وشحنات عواطف يزيدها الزمن توهّجاً، سطور أرهقها الحنين لكل غالٍ، من ياسمين بيت الطفولة، إلى عطر جدتي، ومن طيف أبي رحمه الله الذي لا يفارقني... إلى اللحظات الثمينة مع ابنتي... وصديقة عمري... وتفاصيل وجوه أخرى منقوشة في وجداني.

«**سطورُ محنة**»... نافذة على لحظات قاسية... عذاب المعاناة حين يستحضر صفاء التجلّي... سعير الألم... يذيب القشور فنلمس قاع الأشياء وجوهرها...

أما «**فيضُ الخواطر**" فنافذة تشرف على عقلي، تترجم رؤيتي لأمور شتّى... ملامح مدينتي... عمارتنا الأصيلة، الموسيقى، الشعر، الأخلاق، السعادة، السفر... وخواطر أخرى مرّتْ في البال...

مجموعة صور التقطتها من نافذة قطار حياتي في بعض المحطات التي استوقفته... قلّبتها في «**وحي صور**»... مواقف دوّنتها إذ هزّت كياني بما اختزنته من معانٍ أو معاناة...

والنافذة الأخيرة... فتحتها على **شجون الوطن**... لم أنتمِ لأيّ حزب... ولا تبنّيتُ أفكار أحد... ولكنني نشأتُ هنا... في بلدٍ يندر أن تجد فيه طفلاً لا يتحدّث في السياسة... ولم يرث المشاعر القوميّة مع «الجينات»... ولا يعتبر الوطن العربي كله بيته الكبير... ولا يعتزّ بأن العرب... جميع العرب... أهله.

* * *

العبارة التي راقني ترددها على مسامعي «كتاباتك تشبهك»، والكتابة –حقاً– تسلبني أقنعتي، هي مرآتي الحقيقية، وإذا كان سقراط قد قال لمن ظلّ صامتاً في مجلسه: «تحدّثْ كي أراك...» فإنني أقول: «اكتبْ كي أراك»... وها أنا «أكتبني»... ونصب عينيّ قول شاعرنا الكبير محمود درويش رحمه الله:

«أنا لستُ منّي إن أتيتُ ولم أصلْ

أنا لستُ منّي إن نطقتُ ولم أقلْ

أنا مَن تقول له الحروفُ الغامضاتُ

اكتبْ تَكُنْ!

واقرأ تَجِدْ!

وإذا أردتَ القولَ فافعلْ، يتَّحدْ

ضدّاكَ في المعنى

وباطنُكَ الشفيفُ هو القصيد».

وهذا الكتاب بعض «باطني الشفيف»... «وهجُ» روحي... نور ودفء يشيان بلهيبها... في أضمومة مشاعر وذكريات وهواجس وأفكار... وَجَدتْ –أخيراً– طريقها إليكم...

ريم

وهجُ رُوح

وحنينُه أبداً لأول منزل

أمدُّ يدي ألتقطُ واحدة من نجوم شجرة الياسمين الوارفة يمين المدخل... أستنشق بعمق... علّ أريجها يصل إلى أبعد مدى داخلي...

أعبرُ حديقة كانتْ أسوارها ذات يوم حدود كوني، أمشي فوق درب أحفظ أحجاره عن ظهر قلب... أقفُ عند عتبة باب بيتنا القديم... هنا أعتدتُ أن أرمي حقيبتي الصغيرة حال عودتي من المدرسة قبل أن أدخل لأرتمي على صدر أمي، أغيبُ في حضنها الحاني... بينما تتسلّل يدها برفق إلى خصلات شعري لتحرّرها من رباطها...

والآن أفعل... أرمي همومي ومشاغلي على عتبة هذا الباب، وألج منه إلى السكينة والنقاء... وها هي أمي... كما كانت دوماً تفتح ذراعيها لتحتضنني...

كل شيء كما كان... كأنّ عقداً من الزمان لم يمرّ...

فيض المحبة والتسامح على الوجوه الطيبة التي شاركتني لحظات طفولتي وصباي...

رائحة الطعام التي أحبّ، والأثاث المرتب النظيف، هدوء الشرفة الصباحية وورودها... وزقزقة عصافير الأشجار الباسقة عند طرف الحديقة، تلك الأشجار التي طالما سمعت أمي تقول عنها بكثير من الحنان «عمرها من عمرك»...

أسترخي على سريري القديم، يتسلّل دفء لذيذ إلى عظامي... غرفتي مازالت على حالها... أجيل البصر في أنحاء المكان... صوري في مختلف مراحل عمري، صور الأصدقاء والأحباب... هل ركن إلا فيه كنز من الذكريات؟.

خزائن الذاكرة تشرع أبوابها، ويضيع الزمن... فيخيّل إليّ لوهلة أن الحاضر حلم كله، وأعيش الماضي ثانيةً بكافة تفاصيله، وتجتاحني موجة عارمة من الحنين... إذ يُهيّأ لي أنني أسمع أبي رحمه الله يناديني بالاسم الذي كان يحلو له أن يدعوني به...

في فضاء هذا المكان أستردّ أجنحتي، أعود طفلة... نبتة سُقيتْ بعد طول عطش... أستردّ حماسي وإيماني بالآتي... أستعيد نضارة خديّ وألوان التفاصيل... وأسمع من جديد رنّة الحياة في صوتي، وأرى في عينيّ لمعة خلتها خبتْ... وتتسلل أشعة الشمس التي تملأ البيت إلى كل خليّة من جسدي لتدفئ كل حنية من حنايا روحي...

كم أنا سعيدة لأنني فكرت أن اقضي إجازة العيد هنا... وأي خيار أفضل من مدينتي الأصل وبيت الأهل... لألتقي العيد الحقيقي الذي أعرف؟...

هنا يعيش العيد أبداً... بكلّ طقوسه... وكل بهجته... بأهازيجه... بالحلوى التي تعدّها أمي... بفرح الأطفال وثيابهم الجديدة وترقّبهم «العيدية» لتفيض بهم الحدائق والملاهي ودكاكين الألعاب، بينما تغصّ المقابر بالزائرين والرياحين... لمعايدة من رحلوا...

العيد هنا جلسات دافئة تجمع شمل الأهل من كل مكان... فنضحك من القلب إذ نستدعي الذكريات و... ننجح في إعادة عجلة الزمن إلى الوراء، فيُبعث الماضي الجميل حياً، لنعيد اعتصار لحظاته الحلوة...

لقد بقي العيد دائماً هنا... في بيت طفولتي، بينما كبرتُ أنا وغادرت، وصار لي بيت آخر في مدينة كبيرة وحياة سريعة الإيقاع، ربما توسّعتْ مداركي ومعارفي وخضتُ تجارب نجاح وإخفاق... وخطوتُ باتّجاه بعض أحلامي، وفتحتُ نوافذ على عوالم جديدة لم أكن أتخيّل حتى وجودها، لكنّ... أشياء كثيرة هربتْ مني في ذلك الركض الهستيري، بعضها لن يرجع... وبعضها... أحاول تلمّسه بين فترة وأخرى في عودتي هنا حيث أجد ذاتي، هنا في «مكاني الأول» و...

كم منزل في الأرض يألفه الفتى وحنينه أبداً لأوّل منزل

محزنٌ حقاً أن لا ندرك حقيقة الأشياء في المراحل الأولى من عمرنا، حين يندفع بنا قطار الحماس بجنون نحو أحلام ترسمنا ونعتقد بسذاجة أننا نرسمها... ويمضي زمن طويل قبل أن نعي أن الأهم من الوصول... هو الاستمتاع بالرحلة، لأنها رحلة باتجاه واحد... محطّاتها لا تعود... ولا تعطيك جديدها إلا مقابل ما تسلبه من قديمك... وفي وصيّته الأخيرة، يختصر الكاتب الكبير غابرييل غارسيا ماركيز بعض تجربته الطويلة بقوله إن «سرّ السعادة يكمن في تسلّق الجبل لا في العيش فوق قمته»...

بسرعة خرافية... بل بسرعة محزنة... وقبل أن أرتوي... مرّت الأيام الثلاثة، وعلى سفينتي أن تبحر مجدداً مغادرة مرفأها الأوّل والأخير...

أتنهّد بينما ترنّ في أذني كلمات اعتاد أبي أن يردّدها بحزن كلّما توادعنا: «إنها سنّة الحياة»...

من خلال دموع الفراق... أمدّ يدي... لألتقط نجمة من ياسمينة المدخل... أعبّ عطرها بعمق... أجل... هناك عبق لا يتغير مهما مرّ الزمن.

جدّتي «دريّة»

أتسلّقُ درج بيتها الطويل بلهفة، أفكّر بما ستقوله حين أفاجئها بزيارتي، السيناريو ذاته يتكرر، من الباب الموارب ألمحها في سريرها تصلّي، شعرها الأبيض الطويل معقوص خلف رأسها الصغير، وقامتها الدقيقة تختبئ داخل فستانها الأنيق النظيف، تحت غطاء جميل تبدو من طرفه قدماها البيضاوان.

«جدتي... هذه أنا»، تميّز صوتي من بين كل أصوات الدنيا، تلتمع العينان الزرقاوان الذكيّتان ببريق فرح حقيقيّ، تفتح ذراعين نحيلتين أدفن بينهما رأسي، أقبّل يديها، أقبّلها من رأسها إلى قدميها، أعود طفلة مشاكسة، أداعبها بمزاح تحبّه، أتظاهر بالدهشة أمام «بقائها شابة وجميلة»، تضحك بحنان وهي تردّد: «يا شقيّة، لا أحد يمازحني كما تفعلين»، لا آبه لغمغمات احتجاج الآخرين المعترضة على مزاحي الذي «قد يتعبها»، وأعرف أنها هي أيضاً لا تأبه، فطوفان الحب لا يُغرق أحداً...

يدها النحيلة لا تفارق يدي، أتمرّغ بكلماتها الحانية كقطة، طالما كنتُ مفضّلة لديها، ألستُ الابنة الصغرى المدلّلة لولدها البكر؟، أو ربما لأنني اعتدت في صغري أن أستكين الساعات الطويلة عند قدميها أستفسر بإلحاح عن تفاصيل رحلاتها المتكررة للحج والعمرة، أم هو الحبل السريّ، لا ينقطع عبر الأجيال، واصلاً الفرع أبداً بالأصل؟.

تسألني باهتمام عن كل صغيرة وكبيرة في تفاصيل حياتي التي تعرف عنها كل شيء، تحمّل كلماتها التلميحات الذكية، تشير إلى المرآة حيث صورتي، تريني – ككل مرة – بطاقة تحتفظ بها، كنت قد أرسلتها لها يوم نلتُ الماجستير، توصل من خلال كنوزها تلك محبّتها العارمة، ومن يضاهيها مهارة في إيصال مشاعرها الايجابية لمن حولها؟.

هي جدّتي أمّ أبي، بكرها الذي أحبّته حبّاً جمّاً، وصديقها الذي تكبره بأربعة عشر عاماً فقط، فقد تزوّجتْ صغيرة، كمعظم بنات جيلها، لكنها فاقت معظمهنّ جمالاً وفتنةً ودهاء، أحاديث «الكبار» لا تنتهي عن جمالها المبهر الذي كان مثار غيرة جدّي الشديدة عليها، ففي تلك الأيام التي لم تكن فيها الشوارع مضاءة بعد، كان يتعمّد إبعاد المصباح الذي يحمله عن وجهها كي لا يلمح أحد جمالها الأخّاذ، جمال مازلت تستطيع أن تتقفى آثاره في وجه شديد البياض وعينين زرقاوين جميلتين وقامة منتصبة وابتسامة هادئة لا تغادرها حتى في مرضها.

ولأنّها كانت أنثى «حقيقية»، فقد تعلّق جدي بها تعلّقاً شديداً، كان الرجل المهيب الواسع النفوذ يخلع همومه خارج عتبة بيت حوّلته بمهارة إلى مملكة مريحة، ملأتها أطفالاً وظلّت مع ذلك عروسه الصغيرة... وبقي مفتوناً بها، أذكر أنه في مراحل متقدمة من عمره، كان يخفي –رحمه الله– مفتاح

الخزانة الكبيرة قرب باب المدخل حيث تضع جدتي عباءات الخروج، كي يطمئن أنها لن تذهب في زيارة أحد أولادها فتغيب عنه ولو لساعات.

لا تفتأ تبهرني هذه السيدة التسعينية، عمّي يظنها تجاوزت المائة، ليس مهمّاً تسعون أو مائة عام، فما أُجلّه في تلك السيدة، ليس انتصارها على السنين فحسب، بل شخصيتها القوية الناجحة بكل المقاييس، وإذا كان «لكلٍّ من اسمه نصيب»، فجدتي «دُريّة» تحمل كثيراً من اسمها الجميل، وأظنّه يتناسب وشخصيّتها الفريدة.

تنثر كلماتها اللطيفة قطع حلوى على زوّارها، تستقطب القاصي والداني بدبلوماسيّتها المفرطة وطيبتها الشديدة ويدها المفتوحة دائماً للخير، ورغم أنني لم أسمعها أبداً تتكلم عن مال ولا رأيته قط بين يديها، لكنني أعرف أن عدة عائلات فقيرة تقتات على مخصّصات منها.

يدٌ حديديّة في قفّاز من مخمل، نظرة حادة أو صوت حازم منها يكفي لتجميد الدم في العروق، ويوم توفّي جدّي وقفت بقوة أمام قبيلة الأولاد والأحفاد، لتحسم بكلمات قليلة أي خلاف ممكن، وتفرض على الرجال أن يمنحوا النساء ذات نصيبهم، وخرج الكلّ من بيتها ذلك المساء راضين ليس بما اقتسموه بل برضاها.

لكنها في الوقت نفسه «الحنيّة» مجسّدة، بدليل محبة الأولاد والأحفاد وأحفاد الأحفاد اللامتناهية لها، يتقافزون على أدراج بيتها كلما سنحتْ لهم الفرصة، ليتباركوا بوجهها المشرق دائماً بنور ربّاني هادئ، هل هي صلاتها التي لا تنقطع وصيامها المتكرّر وحجّاتها العشرون إلى بيت الله الحرام؟ أم هو حبّها الصادق للّه يشعّ من كل ما فيها، بتسامح يزيدك إيماناً بالأيمان، ما جعلها قبلة يجتمع عندها أحفادها الكثر، وهم قوس قزح من الجنسيّات والمعتقدات والأديان والمشارب، ينهلون من محبتها وحكمتها التي تبثّ ما التقطته حواسّها بذكاء في مسيرة طويلة جابت خلالها معظم بقاع العالم.

وصيّتها التي تردّدها كلما دعونا لها بطول العمر، أن نسكب فوق تراب قبرها العِطْرَ كلما زرناه، فإلى جانب «العسل» الذي يشكّل معظم غذائها، وتتفوق في تمييز غثّه من سمينه، غرام جدتي في هذا العالم هو الروائح الزكيّة، يقولون إنها اعتادتْ في صباها أن تنهي حمامها بسكب قارورة العطر بكاملها على جسدها ليصير المبنى من أسفله إلى أعلاه –في الدور الرابع حيث تعيش– شلّال عطر، تؤكّد على وصيّتها الغريبة هذه بجدية وصدق أمام أولادها وأحفادها واحداً واحداً، على الأقل من بقي منهم، فلا أحد يجرؤ أن يخبرها – بعد سنين ثمانية – أن أبي رحمه الله قد مات، وأن عمّتي نبيلة وعمّي عدنان قد انتقلا إلى رحمته أيضاً، نستمر في الادعاء المؤلم بأنهم قد سافروا أو أنّهم مرضى، ويخيّل إليّ حين أراها ساهمة بحزن، أنها تعرف في قرارتها الحقيقة لكنّها لا تريد أن تواجه قسوتها، وما زالتْ – في كل صلاة – تدعو لجميع أولادها الإثني عشر (أربع إناث وثمانية ذكور) والذين تفانت ليتبوؤوا مكانة أبيهم في المجتمع، خالد صار طبيباً، فؤاد وفاروق وعلي رجال أعمال،

عـدنان كـان محاميـاً، ورامــي ومحمـد أدارا المـزارع بكفـاءة، والأحفـاد فـاقوا آبـاءهم، وتوزّعـوا بـين أرجـاء المعمـورة، ورغـم أن لكـل مـنهم أكثـر مـن بيـت فـي أكثـر مـن مدينـة، لكنهـا لـم تـنم أبـداً خـارج البيـت الـذي جمعها وجدّي سنين ستّين جميلة، فجدّتي «درية» لا تقبل أن تكون ضيفاً أو عبئاً على أحد.

بكبريـاء يضـاهي الـدنيا اتسّـاعاً، نجحـتْ لقـرن مـن الزمـان أن تبقـى ملكـة فـوق عرشـها، وزهيـر بـن أبـي سلمى يقول: «وَمَن لا يُكَرِّم نَفسَهُ لا يُكَرَّمِ».

رحيله زاده اقتراباً

أقلّبُ البطاقات البريدية القديمة وأوراقه التي احتفظتُ بها بين أغلى ما لدي... فتتناثر صور الزمن الجميل من بين طيّات الأوراق المصفرة...

أتأمّل بحنان... خطّه الجميل... الذي طالما سحرني... تتدفّق من انحناءات حروفه شلالات الذكريات... يجتاحني الحنين والحزن...

منذ رحل... وأنا أخبّئه في مكان ما داخلي... أحاول ألا أخرجه أبداً... كي لا أراه طيفاً يبدّد وهمي بأنّه مازال موجوداً... وأنه سيكون هناك... حين أقتحم غرفته ضاحكة... أداعبه «بشقاوة» طالما أحبّها... أخبره عن أشياء كثيرة... يصغي بصبر وحنان لثرثرتي... يختلق سؤالاً هنا وتعليقاً هناك، ليوهمني أنها تهمّه... شؤوني الصغيرة...

منذ غاب... وأنا ابحث عن حلّ لغصّة تسكنني... ويزداد يقيني أنها سترافقني حتى آخر العمر...

لم أتقبّل أبداً... الفكرة المرعبة لرحيله عن حياتي في لحظة... لحظة واحدة... يقف فيها القلب الذي احتوانا جميعاً... ويُوارى التراب... بدلاً من سريره، ملجأي في ليالي الشتاء العاصفة... حين كان يخيفني هزيم الرعد –أو أتظاهر بذلك – ليحتويني في حضنه الدافئ...

سبع سنين عجاف مرّت منذ ذلك اليوم الذي غيّر حياتي، تلك الليلة الحزينة التي لا أنساها من أواخر رمضان...

ولأنني كنتُ الأثيرة لديه... ولأنّه كان صديقي، فقد كان مألوفاً أن أمرض كلما سافر وأن أشفى حالما يعود، و... مرضتُ فعلاً بعد رحيله... لعدّة أشهر انتظرتُ في اللاوعي عودته، حتى أنقذتني نظرات الخوف والحزن في عيون من أحبهم، وإذ قررتُ أن أشفى... فإنني لم اقتنع أبدا أنّه لن يعود...

وكم من مرة بعدها عاد... وعانقته وبكيتُ على صدره... في أحلامي...

وكم مرّة رفعتُ فيها سماعة الهاتف وهممتُ بطلبه... وكم مرة فكّرت فيما سأهديه في عودتي من أسفاري الكثيرة التي لم تفلح في إبعاده عن روحي شبراً واحداً...

لم أجرؤ أبدا على زيارة قبره... في داخلي قناعة راسخة أنه ليس هناك، بل هو هنا معي على الدوام... أقسم انه معي... حتّى حين لا أفكر بذلك.

أبي... رحيلك زادك اقتراباً... وكلما مرّ يوم تضاعف حنيني إليك وتنامت حاجتي لك... أفتقدك حقاً... وأشعر أنك تتأمل ما أخطّه الآن، وترمقني كعادتك بفيض حنان... بزهو فنّان أمام لوحته المفضلة...

ستحيا أبداً في أعماقي... جرحاً لا يلتئم... وسيبقى أبداً حنيني إليك...

لأننا نحبّه . . .

كنّا صغاراً يوم تزوّج أبي...

الصدمة وتوابع زلزالها واستهجاننا الفكرة... جعلنا نرفض نتيجتها...

ونتيجتها كانت شقيقتين... لم نجتمع بهما للأسف في حياته، وأدركنا بأسى بعد أن فقدناه أن ذلك مزّقه طويلاً بين قلبه وقلبه...

لأننا أحببناه... افترقنا...

ولأننا نحبّه... التقينا... أخيراً... ولكن بعد فوات الأوان... بعد سنوات طويلة من رحيله...

وفي ظلال شجرة وارفة عملاقة... بعد عشرين عاماً من التبعثر... احتضنتنا بقعة حانية على ضفاف النيل...

بعد طول اغتراب... التفّتْ الغصينات في حنينها لجذعها الأصل...

أليس نسغاً واحداً ذاك الذي يجري في عروقها...؟

بشوق وارتباك امتدّت أيادينا تحاول أن تلتقي...

كأطفال كنّا فرحين، رغم أن أصغرنا قارب العشرين...

بانبهار أخذ كلّ منا يتلمّس الآخر ... يستكشفه... يذهلنا التشابه... ويعجبنا الاختلاف...

اختنق الكلام الكثير في الصدور، إذ كيف تُروى في ساعات أو أيّام قصص عشرين عاماً من سفرنا، كلّ منّا نحو الأخر؟.

على طاولة العشاء... أطلتُ التحديق بهم... أن يضمّنا مكان واحد... حلم راودنا طويلاً...

أحدٌ منا لم يتناول طعامه... كان صمتنا حواراً... وكان الغائب حاضراً... ومن كرسيٍّ خالٍ في آخر الطاولة... تراءى طيفه يبتسم بحنان وحزن...

فاضتْ عيناي بدمعتي أسى... ليتنا التقينا يوم كان لقاؤنا دواءً لوحشته وألمه، ربّما لو فعلنا لكان بيننا الآن...

الرجل الكبير الذي ألهمته روح أبي الطيبة أن يجمع ما لم يستطع أبي أن يجمعه في حياته... يقول برقّة: «أنا لم أعرفه رحمه الله... لكنني أراه فيكم الآن»...

ليتك سيّدي عرفته... فلسنا سوى شذرات منه...

جمع كل فضائلنا... ولم نملك مجتمعينَ بعض فضائله...

كان يعرفنا واحداً واحداً... لكن أحداً منا لم يعرفه...

كان يبصر... وكنا عمياناً...

كان كبيراً منذ البداية... وها نحن قرب –النهاية– نحاول أن نكبر...

ألا يستحقّ –ولولاه ما كنّا– أن نحقّق أغلى أمنياته باجتماعنا الآن...؟

«ابتسموا»... أمام آلة التصوير تقاربنا لالتقاط صورة تذكارية، علّنا نخلد واحدة من أهمّ لحظات حياتنا... أجل لنبتسم من قلوبنا وننسى الماضي... فالمستقبل كلّه ينتظرنا... والحبّ كفيل أن يلأم كل الجراح...

أميرتي الصغيرة

تطبع على خدي قبلة سريعة... وبكثير من القلق والحماس... تركض صغيرتي نحو بوّابة المدرسة الكبيرة... حقيبتها الزرقاء فوق كتفيها... ثوانٍ وتختفي وسط جموع الأطفال الآتين من كل مكان إلى يومهم الأوّل في عام دراسيّ جديد.

تطوف عيناي بدموع حيرى...

هل هو الفرح... أن أرى ابنتي تكبر أمامي... وتتخطّى الحواجز بتفوّق نحو المستقبل الموعود؟...

أم إنّه الحزن... إذ يتسارع الزمن نحو اكتمالها واستقلالها عني... فأبدأ منذ الآن بافتقادها... قطّتي الصغيرة المستكينة دائماً في حجري؟.

أرفعُ يدي... ألوّح لها رغم أنها لا تراني، أتمتم ببعض دعاء راسخ في لا وعيي بصوت أمي، لم أتخيّل أبداً أنني قد أستحضره لأكرره ذات صباح.

أقود سيارتي في طريق العودة ساهمة، قلبي يغور بين أضلعي، كأنني أنا الطفلة التي تُركت وراء سور المدرسة وغادرت أمها.

لم أشعر بالوقت ولا المسافات، إذ تسارعت أمامي الصور لأتلمّس مكاني الحقيقي على شعاع الزمن السريع...

بالأمس... بالأمس فقط كانت تأتيني راكضةً، بعينين واسعتين تنعكس في مرآتهما ألوان الكون، تهبط في حضني كغمامة، ذراعاها الصغيرتان اللتان لا تفلحان – على اتساعهما – في احتضاني تشعلان فيّ حنان الدنيا...

كأنها البارحة وليس قبل ثماني سنوات يوم ذهبنا معاً لأوّل مرّة إلى المدرسة...

أراها أمامي الآن بلباسها الجميل النظيف بلونه الكحليّ والأبيض، ضفيرتاها المتراقصتان على كتفيها، يومها لوّحتْ لي... وابتسمتْ ابتسامتها الوديعة قبل أن تنخرط بفرح بين الأطفال.

أبتسم وأنا أذكر حين عدتُ ظهر ذلك اليوم لاصطحابها... أغفتْ على مقعد السيارة بجانبي، فانفتحتْ يدها الصغيرة لأكتشف قطعة الحلوى التي كانت تقبض عليها بشدة، وقالت بكثير من البراءة والرقة وقد أيقظتها لمستي: «هذه لك... أعطوني إيّاها في المدرسة..»، تردّدتُ قليلاً قبل أن تضيف بحياء «قلتُ إنها لأختي.. ألستِ أختي ؟».

وتنفتح خزائن الذاكرة فتتوالى الصور، وأراها تغنّي فوق خشبة مسرح المدرسة في عيد الأم بوجهها المدوّر الصغير المكتسي بحمرة الخجل والارتباك، تتصبب عرقاً وهي تغنّي بكل حواسها وعيناها داخل عينيّ، تحاولان إيصال حجم الحُبّ الكبير الذي يملأ قلبها الصغير.

أليست مدهشة هبة الله الرائعة التي يمنحنا إيّاها باسم الأمومة؟ هذا الشعور الذي لا يوصف أمام مخلوق صغير... هو منك... يرى العالم من خلالك... أنت منارته ودفّة سفينته... يحرّك داخلك كلّ العواطف النبيلة إذ يلمس بعصاه السحرية أعماقك فتتدفق ينابيع التسامح والرحمة، ليس تجاهه فحسب بل تجاه الدنيا كلها.

وإذا رحمتَ فأنت أمٌ أو أبٌ هذانِ في الدنيا هما الرُحماء

أميرتي الصغيرة كَبُرَتْ، والاثنا عشر عاماً مرّتْ بسرعة كحلم، ومن كائن صغير أحمله على كتفيّ إلى صبيّة تقف على رؤوس أصابعها بجواري لتقارن بين طولينا.

استفقتُ من أحلام اليقظة على لافتة الطريق تذكّرني أنني ابتعدت عن مقصدي...

أغيّر اتجاهي، وأستهلّ طريق العودة، أعيد استراق النظر إلى ساعتي وأنا أفكّر: آه... كم يطول الزمن في انتظارها حتى تعود...

هواجس أُمٍّ طموح . . .

أصعدُ الدرج بتثاقل... الساعة تجاوزتْ الثانية صباحاً... مرهقة للغاية بعد يوم عمل طويل بدأ مع الثامنة من صباح أمس.

ها أنا في الدور العلويّ... أخلع حذائي بحذر، أفتح الباب وأدخل –على رؤوس أصابعي– غرفة ابنتي.

النور الجانبي الخافت يضئ ملامح الغرفة الدافئة... صغيرتي تنام كالملاك في سريرها، أسوّي الغطاء فوق كتفيها... ألثم جبينها، أستنشق بعمق رائحتها التي تذكّرني دائماً برائحة الفاكهة الطازجة...

جوَّ الغرفة الهادئ، اللُّعَبُ المنثورة في كل مكان، الأشياء المستكينة ببراءة وحب في أماكنها، كلّها تهدّئ إيقاعي السريع، وتُسرّب إلى نفسي سكوناً أفتقده، فيخفت ضجيجي الداخلي وأستعيد إنسانيّتي التي تكاد تتوارى تحت أكوام التفاصيل اليومية المهلكة.

أحدّق بها... أتأمّل بشغف وجهها البريء المستغرق في النوم، كم اشتقتُ إليها، أفكّر بمرارة... ها هو يوم آخر من عمري وعمرك يا حبيبتي قد مرّ دون أن نقضي معاً وقتاً خاصاً بنا، يجتاحني الحزن، وتلحّ عليّ فكرة أن أوقظها لأخبرها كم أحبّها... وأيّ شعور بالذنب يعتصرني إذ انشغلتُ عنها اليوم كالعادة، وأن ذلك لا يغيّر أبداً من حقيقة أنها الأهمّ والأحلى في حياتي.

تبهتْ انتصاراتي وتتضاءل نجاحاتي في مثل هذه اللحظات، حين أدرك أنها تبتلع ساعات العمر الأغلى مع ابنتي الوحيدة، التي سرعان ما ستكبر وتحملها رياح الحياة لتسعى في مناكبها، ومن يغيّر سنّة الحياة؟...

تكبر وتبتعد؟ تخيفني الفكرة... وكأنني أستبقيها، أضع يدي فوق يدها الصغيرة برفق، فتقبض عليها لا شعوريّاً... تراها تبحث عني، تراها تحتاجني كما أحتاجها اللحظة؟.

ينتظم تنفسّها هادئاً ورتيباً كأنها شعرت بالأمان... بعد تنهيدة عميقة تريحها... وتذبحني.

طفلتي الحلوة... ألستُ معبرها إلى هذه الحياة؟ ليس لها سواي ولن يبقى لي غيرها، فبماذا أقايض لحظاتي الأثمن معها؟ وهل ثمّة ما يستحقّ أن أدعها تنام وحيدة دون أن أحتضنها وأقبّلها؟.

تطفر دموعي وأنا أغصّ بحيرة تزداد كل يوم بين عواطفي وغريزتي أمّاً وأنثى، وبين مسؤولياتي وطموحاتي، هل عليّ دائماً أن أتمزّق في محنة الاختيار بين أداء دوري كأمّ وبين أن أمارس حقي في أن أكون... في العلم والعمل والنجاح ؟ هل لي أبداً أن أجمعها معاً؟.

أتحامل على نفسي لأترك حافّة سريرها، وأجرّ قدميّ خارجة، كسيرة القلب، مشوّشة الفكر، ستغادر في الصباح الباكر إلى المدرسة، وسيمر الغد كما اليوم وأمس، طاحون مواعيد وانشغالات، تجرفني بعيداً عمّن أحب، لأجدني في آخر النهار، خالية الوفاض، مرميّة على شاطئ الوحدة، كما الآن، ألتقط أنفاسي عائدة من مدَّ جرفني بعيداً، لم أصطد فيه إلا الوهم، وسيعاود جرفي كل يوم إلى أن لا يعيدني أبداً.

ظلام أفكاري وعتمة الغرفة حجبا عني اللعبة الصغيرة فأسقطتُها دون قصد، انحنيتُ ألتقطها وهممت بالمغادرة، لكن صوتها الناعم المحبّب أتاني مغمغماً «ماما؟»، بفرح هرعتُ إليها، أحتضن العالم كلّه في احتضانها بين ذراعيّ... نثرثر دقائق قليلة قبل أن تغفي ثانيةً... هنيهات حنان بلسمتْ تعب يومي الطويل، روّتْ مساحاتي العطشى، أعادتْ لعالمي بهجته وألوانه، لحظات تعادل دهوراً من السعادة.

يستقرّ رأسي على وسادتي أخيراً... أغمضُ عينيّ وقد توازن كوني ثانيةً، الآن أوقن أنني سأتابع سعيي مجدداً... في غد جديد...

بوّابةُ الزمنِ الجميلْ

تتسابق الأشجار على جانبيّ الطريق، وتتغيّر ألوان الطبيعة تدريجيّاً من شحوب الصحراء إلى نضارة الساحل... صباح بارد من صباحات شتاء دمشق، حمدتُ الله أن الطريق ليس مغلقاً بالثلوج وأن الضباب أقلَّ كثافة من أن يعيق الرؤيا، ساعتان ونصف تفصلني عن «طرطوس» المدينة الساحلية الهادئة على شاطئ المتوسط، كنت قد ترددتُ قليلاً وأنا أتأمّل جدول المواعيد وأوراقي وكتبي المبعثرة في كل مكان، ولكنّي في النهاية حسمتُ أمري وقررت أن أسافر لأهنّئها في يوم عيد ميلادها... فالحياة أولويات.

ما إن قطعتُ شوطاً من الطريق حتى تسلّلتْ إلى نفسي موجة من الرضا... شعرتُ أن ما أقوم به هو أضعف الإيمان لأعبِّر لصديقة طفولتي عن مدى سعادتي بتقاطع طرقاتنا ذات يوم ضمن ستة مليارات إنسان يعيشون معنا في الزمان ذاته على الأرض ذاتها، لأخبرها بما يمنحني وجودها في هذا العالم من شعور بالألفة، رائع أن نجد أصدقاء يبددون وحشة الرحلة التي كُتبت علينا بين المهد واللحد،... أليس «الأصدقاء وطن»؟...

هي في ذهني بوابة الزمن الجميل، يوم كان كلُّ شيء نقياً وعفوياً... حلّقنا معاً... تقاسمنا صفحات كتبنا وفرحنا وهمومنا... وحتى أحلامنا... أرانا عائدتين من الجامعة إلى البيت نحمل أوراقنا وأدواتنا الهندسية، نركض سعداء تحت المطر غير مبالين بثيابنا وشعورنا المبتلّة ولا بالتأنيب الذي ينتظرنا عند العودة، نلجأ إلى مطعم صغير اعتدناه واعتادنا، نتناول الشطائر التي مازالت رائحتها الشهيّة في أنفي.

كنّا نضحك حتى تؤلمنا خصورنا... فالإيماءة كانت كافية لنتفاهم، ولطالما استوعبتْ فيض أحزاني، عينان كبيرتان تتسعان دهشة أمام أقاصيصي التي لا تنتهي، وتدمعان إذ يتهدّج صوتي... وتلمعان فرحاً بنجاحي...

ولأنّ «صديقك مَن صَدَقَكَ لا مَن صَدّقَك»، فقد اعتدت أن أراها أول المنتقدين ومرآة واضحة للحقيقة، كنا نتشاكس ونتخاصم كالأطفال... أجل... لكن -كما قال نزار قباني- «حين ترتفع قبضاتنا في الهواء... كانتْ تتعانق... لتتغامز على غبائنا»... كان شعارنا:

صديقي من يشاركني همومي ويرمي بالعداوة من رماني

ويحفظني إذا ما غبت عنه وأحفظه لنائبة الزمانِ

أكان العالم مختلفاً أم نحن الذين تغيّرنا؟ صديقتي الوفية لم تتغيّر قطّ وما زالت كما عرفتها قبل عشرين عاماً... الصداقة فنّ لا يتقنه الكثيرون... وهي تجيده ببراعة...

أبحث عنها حين أشعر أنّي ابتعدتُ عن ذاتي... فتشدّني ثانية إلى أرضي أو ربّما إلى سمائي، خيط سحريٌّ يربطنا، يتحدّى المسافات والزمن، فبعد غياب شهور أدير قرص الهاتف، يثلج صدري صوتها الودود الدافئ، تقرأني من نبرات صوتي، تكفيها الكلمة الأولى لترسم خريطة مناخي الداخلي، ويختلّ الزمن اختلالاً جميلاً، فأعود طفلة تتدفق حماساً... أضحك من القلب... أفتح مصراعي روحي على آخرهما لأدعها تدخل عوالمي المغلقة... أستمتع وأنا أقرأ لها ما كتبت، وأصغي إلى

تفاصيل شؤونها الصغيرة وأخبار أشخاص عرفناهم وأماكن زرناها... تتوهّج تلك المساحة المشتركة بيننا مشعلة كل ما انطفأ في داخلي، وأعود «فيّاضة» بما أحب... وأستردّ الزمن المفقود...

صور كثيرة تبهتْ مع مرور الزمن، في حين تزداد صورهم في البال بريقاً وبهاء... أصدقاء المراحل الأولى الذين أحبّونا كما نحن... بألواننا الحقيقيّة... في الظروف الأصعب، لا نفتأ نتلمّس مكانهم الخالي على أريكتنا الوثيرة ذلك:

إنّ الكرام إذا ما أيسروا ذكروا

من كان يألفهم في المنزل الخشنِ

أتهيّأ لسفر العودة بعد أن أطفأنا معاً شموع كعكة العيد... الآن أدرك كيف تصغر «الإنجازات» أمام لحظات نقضيها مع من نحبّ... وما أسوأ الندم على أشياء لم نفعلها وكلمات لم نقلها لأحباب فرّقتنا عنهم الحياة... أو الموت.

فراق جديد... وقد بتُّ أخشى اللقاء حين أفكّر بآلام فراق يعقبه، ففي كل مرة أودّعها أستغرق أياماً لأستعيد حالتي الطبيعيّة... كأنّها توقظ أحزاني النائمة وتستخرج ما أحاول تناسيه بضجيج العمل وزحمة الانشغال وغبار الزمن... تمتمتُ بحزن وأنا أتذكّر عينيها المغرورقتين بدموع الوداع:

«وإذا الدنيا كما نعرفها وإذا الأحباب كلّ في طريق»

حنين

يحدث أحياناً أن نستفيق محمّلين بأكوامٍ من الهمّ والحزن، كأن أرواحنا قد هُيّئتْ سلفاً لنهار كئيب...

«هو واحد من تلك الصباحات»... فكرتُ وأنا أرتدي ثيابي بتكاسل... المكتب... وسلسلة اللقاءات المملّة... من يودّ العمل في يوم كهذا؟.

انتزعتُ الورقة الصغيرة من تقويم الحائط... التاسع عشر من رمضان، أستعدّ نفسياً لهذا اليوم منذ أيام عدة، أحتالُ على نفسي ككل عام كي أخفّف وطأته علي، وأتجاوز ذكراه المؤلمة... أيعقل أن تسعة أعوام قد مرّت؟ محال... كأنه رحل البارحة... بل كأنه لم يرحل أبداً، ودهور تمرّ لن تستطيع أن تأخذه مني... هو دوماً معي... شعور يتزايد باستمرار ويتجلى بشكل خاص في ذكرى وفاته...

«وَصَلْنا»... صوت السائق أبي احمد ينتشلني من تفاصيل ذكريات الأيام الأحلى مع أبي رحمه الله، أغادر السيارة على مضض...

ها أنذا وراء مكتبي، الوجوه تمرّ متشابهة والكلام مكرر، أعجز عن التركيز... كان عليّ –اليوم بالذات– أن أعتكف كي أعيش طقوسي الخاصة، أنا بطبيعة الحال ضعيفة أمام ذكرى أبي... فما بالك بذكرى رحيله؟

أخترع الأسباب لأنهي عملي وأغادر باكراً... ألملم أوراقي كيفما اتّفق... أحشرها في الحقيبة الصغيرة... وأنسلّ من باب المبنى... لكنني لا أجد أبا أحمد، إذاً عليّ الانتظار ريثما تأتي السيارة، لا بأس فمراقبة حياة شارع دمشقيّ في نهاية يوم رمضانيّ مشهد طريف لا ينفكّ يثير دهشتي، كأن الناس قد استفاقوا فجأة وبدؤوا بالركض المجنون تجاه لحظة الصفر... الإفطار، أشرد بعيداً... حيث رمضان الذي أحب، هناك حيث أهلي، رمضانهم مختلف، حتى صوت الأذان، وطلقة مدفع الإفطار... يجمعهم الودّ والمحبة حول مائدة تعطّر المكان برائحة طبخ أمي الشهي، ولو أنّ المشهد الآن يفتقد أبي يصبّ الحساء الرمضاني في الصحون، كان يمتعه أن يفعل ذلك وكانت أمي تدعه يمارس هوايته هذه بسعادة ورضا... لماذا يتجلّى الله أكثر وضوحاً هناك... في كل التفاصيل؟.

ألتفتُ يميناً... الواجهة الزجاجية الأنيقة لمخزن الشرقيات، لم أدخل هذا المكان أبداً، هي فرصة إذاً... فلنلق نظرة على ما وراء هذه الواجهة ريثما يأتي السائق.

أدفع الباب الزجاجيّ...فيصدر جَرْساً خافتاً ينذر بقدوم زائر جديد، تستقبلني نظرات ترحيب سيّدة في منتصف العمر، تردّ تحيتي بلطف من وراء الطاولة الزجاجيّة، بينما يتّجه نحوي الرجل السبعينيّ الوقور الذي كان واقفاً بجوارها، أتأمّله إذ يقترب، وجهه أقرب الى الاستدارة... معتدل القامة ممتلئها، بدا لي مألوفاً ومريحاً، «هل أستطيع مساعدتك؟».

«أودّ إلقاء نظرة على ما تعرضونه هنا لو سمحت»، يهزّ رأسه موافقاً ويرافقني ليردّ على استفساراتي، عينٌ على التحف الشرقيّة وعينٌ على الشارع... أنتظر ظهور السائق، أين اختفى الآن؟.

ولأنني مغرمة بكل ما هو أصيل، لم تمض دقائق حتى نسيتُ السائق وغرقتُ في تأمّل القطع المميزة التي رُتّبت بشكل مدروس فوق رفوف المكان، كان مرافقي يشرح بالتفصيل، شيء ما في أسلوب حديثه... في شكله... جعل شعوري بالألفة يزداد تجاهه، هل هو الشعر الأبيض والوجه المتسامح، أم هما عيناه الطيبتان،

أجل ربما عيناه، فيهما شيء يذكِّرُني بأبي، ربما يشبه أبي؟، لا... لا أحد كأبي بوجهه الأبيض وخدّيه المتشرّبين دائماً بحمرة خفيفة، وعينيه الخضراوين اللتين تختزلان طيبة الدنيا وذكاءها معاً.

كانت عينا صاحب المحل تتابعاني بكثير من التركيز، شيئٌ ما يدور في رأسه... ولكن لماذا اهتم؟، آمل أن لا يتأخر أبو احمد أكثر من ذلك.

اخترتُ علبة نحاسيّة صغيرة للشاي، لم أستطع مقاومة إغرائها، يضعها السيد تيسير –كما سمعت زوجته تناديه– في كيس أنيق دون أن يزيح نظراته المستغرقة عن وجهي، يضع مع العلبة قطعة حلوى هدية، ويسألني «هل تسكنين في الجوار؟»، سؤال كان بداية لحديث قصير، وكان طبيعياً بعد أن عرف أن مكتبي في البناء ذاته أن يمدّ لي يده ببطاقة المخزن، أدسّ يدي في حقيبتي أتناول بطاقتي أقدّمها للرجل اللطيف وزوجته، يتفحصها بتأنّ قبل أن يرفع عينيه ليسألني باهتمام: «عبد الغني، هناك عائلة تحمل الاسم ذاته في اللاذقية!»، ابتسمت وأنا أجيبه «أنا منهم».

صمتَ وللغرابة فقد صمتتْ كذلك زوجته التي كانت تحادث زبوناً آخر... اعتراني الارتباك وأنا أفكّر: «هل قلت شيئاً خطيراً؟».

هذه المرة ازدادت نظراته إلحاحاً وهو يسألني بتلهّف، كلماته محمّلة برجاء من يتوق لإجابة يخشاها، «هل لك صلة قربى بفؤاد؟»، شعرتُ انه ضغط الزر الذي كان محرّماً ضغطه اليوم بالذات، أبي... كيف تتسلّل من كل التفاصيل منذ الصباح؟، ابتلعتُ غصّتي وأجبته بقلب مجروح «هو أبي... رحمه الله».

نزل جوابي صاعقة عليه، رفع حاجبيه بعدم تصديق وترنّح خطوتين للوراء من هول المفاجأة، غامتْ عيناه بالدموع وتمتم بكلام غير مفهوم، قبل أن ينفجر ببكاء طفل...

كان ذلك بالنسبة لي القشّة التي قصمتْ ظهر البعير، وجدتني أنفجر أنا الأخرى باكية بدموع حاصرتها منذ الصباح... دموع لم تجفّ منذ تسع سنوات.

اتّكأ بمرفقيه على المنضدة أمامه، مخبّئاً رأسه المتعب بين راحتيه، كانت زوجته ترنو إليه بحنوّ وحزن، هل أتيتَ بي اليوم هنا يا أبي لألتقي صديقك؟، رسالة تطمئنني بها أنّك ما زلت ها هنا حولي؟ بالتأكيد، وإلا لماذا لم أدخل هذا المكان –الذي أعبره يومياً منذ بضعة شهور– إلا اليوم، اليوم بالذات؟

تماسك العم تيسير بصعوبة، أخبرني بصوت متهدّج عن علاقته الحميمة بابي وبأفراد العائلة منذ ثلاثين عاماً قبل أن يسافر إلى السعودية ليعود ويستقرّ في دمشق بعد ذلك.

احتضنتني عيناه الممتلئتان دموعاً بمحبّة، كأنّه وجد فيَّ ضالة أضاعها زمناً طويلاً وما فتئ يبحث عنها، كان ينقّب عنه في قسماتي... رفيق صباه، تأمّلته بحنان وأنا أفكّر أنّه وجه أحبّه أبي واعتاد رؤيته، كلانا كان يبحث في الأخر عن زمان وأشخاص أحبّهم... عن دواء لحنين أضناه...

كان الموقف صعباً والكلام معاناة، وكثير منه قيل دون أن يُقال، الدقائق مضتْ ساعات طويلة في حديث الذكريات والشجون، وأبي يضع ذراعاً على كتفي وأخرى على كتف صديقه... كلانا شعر بذلك، فيض من الذكريات استفاق على حين غرّة، ملأ المكان بشكل مرهق، في مقلتيه تتابعتْ عشرات الصور، كنّا غارقين في غيبوبة مفتوحة العينين، هنا ولسنا هنا، كنا هناك، حيث وددنا أن نكون.

حاول أن يقول شيئاً، لكنه أخفق إذ خنقت الغصّة صوته وهاجمه البكاء ثانية، همهم باعتذار وهو يدير ظهره ليتوارى خلف خزانة يبكي وراءها دون رقيب، جففتُ دمعي بمنديل قدّمتْه لي السيدة «أم محبّ»، تقاسمتني الرغبة

بالهرب والرغبة في الوقت ذاته بالارتماء في حضن العم تيسير والبكاء على كتفه، كنتُ أشعر أن أبي في مكان ما منه.

الجرس الخافت يخطر بقدوم زائر جديد، ألتفتُ إلى السائق... أبتسمُ بمرارة... «لا بأس يا أبا أحمد... لم أعد مستعجلة للذهاب الآن، فما كنتُ أريد الاختلاء بنفسي لأفعله هناك... فعلته هنا، كنت أريد أن أتواصل مع أبي، وهاأنذا قد فعلت»...

سطورُ محنة

سطورُ محنة

دخلتُ المصعد الكبير، ضغطتُ زر الدور السادس، تحسّستُ بأصابعي علبة الحلوى التي أحملها لصديقتي التي أُجري لها قبل يومين عمل جراحيّ.

كان باب المصعد على وشك الإغلاق حين أُعيدَ فتحهُ، تنحّيتُ جانباً أُفسح المجال لدخول سيّدة فوق كرسيّ متحرّك تدفعها ممرّضة شابة.

كان يمكن أن لا يستوقفني هذا المشهد المألوف في مصعد مستشفى، لولا شعور راودني بأنني أعرف السيّدة الجالسة على الكرسيّ، ومع أن رأسها المنكّس لم يتح لي تبيّن ملامح وجهها، لكنني كنت شبه متأكّدة أنها هي.

لا، لا يمكن أن تكون هيَ، فقد رأيتُ سلوى قبل بضعة أسابيع فقط بكامل صحتها وتألقها... «يُخلق من الشبه أربعين»...

أشحتُ بوجهي إذ طالعتني الممرضة بنظرات استياء، وددتُ أن أوضح لها أنّه ليس فضولاً، لكنه الشبه الملفت... ما يحدوني للتحديق.

ترفع السيدة المقعدة وجهها إلى الممرضة تسألها عن شيّءٍ ما، وأُصعق أنا للمفاجأة، ربّاه...هي فعلاً سلوى.

تلتقي عيوننا لثوان... تقرأ هلعي ورفضي التصديق، وأقرأ حزناً ممتزجاً بالحرج، وضيق من يودّ أن تنشقّ الأرض وتبتلعه، شعرتُ أنها تمنّتْ لو أنني لم أرها...

دون تفكير سارعتُ لاحتضانها، لم أكن مهتمّة أن أفهم بقدر ما كنتُ أودّ أن أبثّها أسفي وتعاطفي الشديدين في تلك اللحظة – الأبد...

باب المصعد يُفتح أخيراً في الدور الخامس... تخرجان... ودون أن أنبس ببنت شفة أتبعهما، لماذا؟ والى أين؟، لستُ ادري، فقد أضعتُ الاتجاهات ونسيتُ مقصدي الأصلي، أعرف أنّي يجب أن أكون معها... لذا أنقاد بصمت وراء كرسيّ متحرك تدفعه ممرّضة لا أعرفها وتستكين فوقه امرأة تعنيني... بيأس وردة ذابلة...

* * *

في غرفتها في المستشفى... تتمدّد سلوى تحت الملاءات البيضاء، تقصّ بحرقة ويدها في يدي ما حصل لها...

دموعي تنسكب بصمت خلف دموعها...

تأمّلتها بأسى... أيعقل أن شعلة الحياة والفرح – كما عهدتها عشرين عاماً – تنطفئ فجأة... ترتمي سنديانة مُحتطبة فوق سرير؟، لم أتخيّل أبداً أن أرى يوماً هذا الانكسار في عينيّ من اعتدتُ إيقاع خطواتها القوية تدقّ الأرض، أين ضحكاتها الرنّانة؟... ذلك المكوك الذي يجمع عدة نساء في امرأةٍ واحدة... فائقة الحماس... فيّاضة بكل جديد... متعبة دائماً بطموحاتها...

وإذا كانت النفوس كباراً تعبتْ في مرادها الأجسام

وها هو جسدها يعلن فعلاً استسلامه، ولأول مرة أراها دون ثلّة أوراقها المتطايرة ورنين هاتفها الذي لا يهدأ... وحديثها المتدفّق كنافورة بيتٍ دمشقيٍّ لا تهدأ.

لا ... لازلتُ لا اصدق...

بتهذيبٍ يومأ لي بانتهاء وقت الزيارة... أهمُّ بالانسحاب، لكن يدها تقبض على يدي تستبقيني...

ومن تحت الوسادة تتناولُ دفتراً صغيراً، تتردد قليلاً قبل أنْ تدفع به إليّ، تطلب مني قراءة ما دوّنته في الأيام الصعبة الماضية، تريدني أن أشاركها... ألا تخفّ وطأة الحزن عند اقتسامه مع من نحبّ؟.

برهبة... أمسكت الدفتر البني... كأنّي أحمل قلبها بين يديّ.

غادرتها بعد أنْ وعدتها بالعودة إليها في الغد وقد قرأته...

* * *

دفترها في حقيبتي... جبل يثقل كاهلي...

خائفة منه... أخشى أن أفتح دفّتيه فينسلّ حزنها... يهدم سدوداً أُجهد في نصبها في وجه سيول الهموم المنسابة أبداً فوق هضابي...

أسترق النظر إلى حقيبتي بقلق... وجوده الطاغي يستفزّني... يغريني أن أقرأه... هيّا، يجب أن أفي بوعدي لها... لكنني ما زلتُ تحت وطأة الصدمة منذ رأيتها صباحاً... مضطربة إذ لمستُ جبروت الحياة حين تقرر أن تقسو... مساكين نحن... نعيش في قصور من رمال... نبني ونبني... وتأتي الريح لتبدد أوهامنا في لحظات...

ينتصر هو أخيراً... فأمدّ إليه يداً مرتجفة...

رائحة المشفى تفوح من الأوراق البيضاء... تستقرّ عيناي على خطّ مجنون أميّزه بسهولة... كم يعكس شخصيتها المتوهّجة بالحيوية... وإن كان – بعكسها – لا يُقرأ بسهولة... سلوى تكتب بسرعة... كطريقتها في فعل كل شيء... تتكلم بسرعة وتقود سيّارتها بسرعة ويلهث قلمها دائماً ليلحق بأفكارها المتدافعة... أتنهّدُ بحسرة وأنا أفكر... ربما استهلكتْ حياتها بسرعة أيضاً... هل سابقتْ الزمن دوماً لأنها استشعرتْ أنه لن يمنحها وقتاً طويلاً فوق الحلبة؟...

ولأنها أودعتْ صفحات محنتها أمانة لديّ... وعمّدتْ كل كلمة كتبتها بدمعة، سكبتْ فيها فيض معاناة لحظات قاسية... أوردتُ بعض سطورها هنا... تماماً كما كتَبَتْها... دون تعديل أو تنقيح....

وسلوى كتبتْ تقول:

خواء الازدحام:

«حين تضيق بنا الدروب... وتختنق الحنجرة بالكلمات... يبتلع الخواء كل شئ... تتساوى الأشياء جميعاً، تكتسب كلّها لوناً واحداً... حينها... منتهى الوحدة أن نعتصر أذهاننا لنتذكّر شخصاً واحداً... واحداً فقط... يمكننا أن نلجأ إليه... نبكي على كتفه... دون أن يسألنا لماذا... نهذي طويلاً دون أن يقاطعنا... نلمس صدق أحزاننا في عيونه... نبلسم عذاباتنا بهمساته...

أجل... منتهى الوحدة أن لا نجد إنساناً واحداً... واحداً على الأكثر... بين مئات يحيطون بنا... يكمل عباراتنا المبتورة ويشاركنا نشيجنا الصامت... كم نُخدع بوهم الازدحام... على زيفه...

إذاً... ليس لي إلّاكِ أوراقي...

ولكنني أتجنّب الكتابة منذ أيام، ملاذي الآمن، خشية أن يفجر قلمي ينابيع حزني... أجبنُ عن الإقرار بما يتعبني... ولا أكفّ أهمس لنفسي: «كابوس... هو كابوس سينزاح قريباً إن شاء الله، وغداً أستفيق وكل شيء قد عاد كما كان»...

* * *

الصدمة:

«بعد شهرين من الركض الهستيري والغرق في متاهات العمل، استفقتُ قبل أيام وهممتُ كالعادة بالنهوض من السرير... الصدمة المفجعة كانت أن أكتشف أن ساقي اليمنى لم تعد تطيعني، بدتْ جثة هامدة بلا حراك.

كيف أصوّر هول الرعب والألم الذي امتلكني حين عجزتُ عن المشي ولو خطوات قليلة، أن تستفيق لتجد نفسك عاجزاً وأنت طوفان حركة... يُتعب من حوله بحيويّته الزائدة ونشاطه الذي لا يتوقف.

هل هو مرض؟ أم عين حاسد؟ والأهم... هل سأشفى؟.

وكيف إذا لم...؟ هل أختفي عن الأنظار؟ هل انتهيت؟ وعشرات المواعيد اليوم وغداً وخلال الأشهر القادمة... وأحلامي ومشاريعي؟... ثم أهلي... كيف سيتحمّلون النبأ وأنا في نظرهم خلاصة الأمل والفرح؟ وابنتي هل سأكون عالة عليها بدلاً من أن أكون سندها وجسرها للعبور إلى حياة ناجحة سعيدة؟

و... دارت بي الدنيا... كان ذلك قبل عشرة أيام، ومازالت تدور حتى اللحظة.

أراقب بذهول كل ما حولي... وما في داخلي، أعيد تقييم الأمور، أحدّد لنفسي مواقع جديدة من الأشياء...

أيأس تارة فأتحوّل إلى عاصفة غضب وتمرد... ثم أعود تارة أخرى لأبكي كطفلة بائسة... أتوسّل «صديقي الأعظم» أن يمدّ لي يد العون والرحمة...

تغمرني مشاعر أهلي وأصدقائي الخُلّص بفيض حنان... أتلمّس في تعاطفهم ملامح إنسانيّة افتقدتها في حمّى العمل المجنون...

الآن أدرك أنني انشغلتُ كثيراً عن الأهم... أعيد ترتيب الأولويّات... علّني أتدارك أخطائي... إذا قُدِّر لي أن أعود...

* * *

العذاب:

«في غرفة نومي، على الأريكة الخضراء أستلقي... أسرح ببصري من خلال النافذة إلى المشاهد الخلابة في الخارج...

ألتفتُ بهدوء إلى قدمي اليمنى... آمرها بالحركة... أركّز كثيراً... أغمضُ عينيّ... أبذلُ أقصى طاقتي... أُجهد... لكنها لا تستجيب، ها أنذا أحرك اليسرى بشكل طبيعي أما ساقي اليمنى فتبقى صماء... أتأملّها كأنها ليست جزءاً من جسدي... كأني أراها للمرة الأولى... أوشك أن أحادثها، أستعطفها... ثم انفجر غاضبة لتلكّئها... لكنها تبقى بلا حراك... بل يُخيّل إليّ أنها تحدق بي... دون تعابير... بكثير من اللامبالاة...

تنتهي عادة هذه الدقائق الطويلة الطويلة... بطوفان خوف وشلال هواجس... وأنفجر بالبكاء، هل سأبقى دوماً بلا حراك؟ تذبحني نظرات الشفقة في عيون من حولي والألم المكبوت في وجه أمّي الطيّب، أربّتُ بامتنان على شعر أختي التي تنحني لتلبسني الحذاء، وأتّكئ على الأيدي الممدودة لمساعدتي لأمشي ولو خطوات؟...»

* * *

بين قضبان عجلات الكرسي المتحرك:

«في ممرات المشفى تدفعني أختي على الكرسي المتحرك... تحاول أن تشتتْ تركيزي عن الأمر بنكات ساخرة تطلقها... لكنها لا تفلح... هيهات أن أستطيع تجاهل نظرات الفضول والدهشة والشفقة في كل العيون.

أخفض رأسي كي لا أراهم... من أعرف ومن لا أعرف.

امرأة طيبة تتمتم ببعض دعاء شفاء «للمسكينة التي ما زالت شابة»، تغرورق عيناي بالدموع، لم أتخيّل أبداً أن أعيش هذا الموقف... رباه، ارفقْ بالمعوّقين، كم تبدو لي الآن حياتهم صعبة وقاسية، أفكّر فجأة بكل ما لم يعد بإمكاني فعله، تلحّ علي الرغبة بأن أركض، أن أرقص، أن أقفز... لماذا لم أفعل... كل لحظة... يوم استطعت؟»

في غرفة التصوير الشعاعي:

«الأصوات الحادّة تخترق إذنيّ... تبثّ مع الألم الخوف... كأنها نعيق آلاف الغربان... كأنها عشرات صفارات الإنذار...

الآلة العملاقة... وحش خرافي من المعدن... يحتلّ فراغ الغرفة الباردة... جهاز الرنين المغناطيسي... بوّابة الرجاء والقنوط... يتيح للأطباء استكشاف أدقّ حنايا الجسم، هل يستطيع ترى أن يرصد ما يعتمل في قلبي الآن؟

مجدّداً استلقي على السرير الضيق... يتحرّك آليا ليدخل قلب جهاز ضخم لا قلب له...

في مرآة صغيرة مثبّتة في خوذة ألبسوها رأسي، ألمح أطياف أطبّاء وراء جدار زجاجي، يتابعون على شاشات الكمبيوتر ما يحدث داخل جسدي المرهق... خلفهم... بدا لي طيف أختي القلقة... حبيبتي... لم تفارقني لحظة منذ مرضت... لم تسمع إلا عبارتي الأولى في الهاتف بصوت منفعل... وكان ذلك كافياً كي تترك خلفها أسرتها وعملها... وتسافر ساعات طويلة... لتكون بجانبي، في لحظات كهذه، أشعر بالذنب بحقّ ابنتي إذ بقيتْ وحيدة، ففي دنيا مليئة بالمفاجآت – مهما كنّا أقوياء – لابد أن نحتاج إلى سند بين لحظة أو أخرى... ومن أقرب من الأهل؟

أغصّ وقد تذكّرت ابنتي ... فكّرت بردّة فعلها حين تعرف بما حصل لي، لحسن الحظ أنها مسافرة برفقة صديقتها في رحلة خارج البلاد ولن تعود قبل شهر... وربما عندها أكون قد استعدتُ عافيتي... هل سأستعيدها أبداً ؟»

* * *

الرجاء:

«أطبّاء... أطبّاء... ممرضات... أثواب بيضاء... أجهزة غريبة... روائح عقاقير نفّاذة... إبر تخترق كل مكان في جسدي... يزوغ بصري متعقّباً قطرات المحلول الملحي تتدافع في انبوب شفاف يصبّ في وريدي... لتصل دمي، ترى هل تحمل معها الشفاء؟

شرائح شعاعية سوداء تتقلّب أمام بصري... عشرات الصور... يمعن الطبيب النظر بها ليقرأ ما لا أراه، قلبي معلّق بعينيه وشفتيه، أحاول أن أستقرئ ما سيقول... يتطاول الزمن بشكل مؤلم... قبل أن ينطق بما لا يشفي غليلي ولا يعيدني إلى بر الأمان.

أهمس مناجية «صديقي الأعلى»... أرجوه أن لا يخذلني... أذكّره بسذاجة بأشياء طيّبة فعلتها... أبيّن له وجهة نظري فيما قد يكون أثار استياءه... وتتضاءل فجأة أهميّة أشياء خلتها أساسية... سبحان الله... تتغيّر خارطة الدنيا أمام عينيّ...»

رَجْع قلب:

«ينتشلني رنين جوّالي من تأملاتي... لن أردّ... منذ عشرة أيام لم أردّ على أية مكالمة، لا أحد إلا أهلي وقلّة لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة... اكتشف الآن أنّهم من يهمّني في هذه الدنيا.

يتابع رنينه بإلحاح، وأقرأ اسماً عزيزاً على الشاشة، فأقرر أخيراً أن أجيب، يبادرني بالعتاب «لماذا لا تردّين منذ بضعة أيام ؟»، أسمع صوتي يجيبه ...آتٍ من صقيع أعماق سحيقة، أخبره باختصار عمّا حصل، يصمت دهراً ثم يتحشرج صوته وهو يستحلفني بتوسّل أن أقول إنها دعابة سمجة... قبل أن يجهش بالبكاء ويقفل الخط...

أبكي طويلاً وقد مسّت مشاعره قلبي، كم صار البكاء يفاجئني هذه الأيّام... كأنّ قلبي في عيوني...»

* * *

صديقتي الأثيرة:

«عند باب بيتها... لقاء للحظات... في طريقي إلى الطبيب... لا ادري لماذا حرصتُ على المرور بها، رغم أن أشهراً انقضتْ منذ آخر لقاء... كنت مصرّة أن أودّعها... كأنني ذاهبة دون عودة .

عند باب بيتها... استعدتُ شريط السنوات العشرين الماضية في دقائق.

رأيتني أعود ضاحكة من شاطئ البحر بثيابي المبللة... أتذكرين يوم سقطنا والقارب يرسو؟، وأراني في السيّارة تجول بنا الجبال التي أحبها، ما زال هواء النافذة المفتوحة يلعب بشعري المجنون... أراني وأراني... ثم أعود إلى الأرض فأراني بقايا امرأة ... تجرّ ساقاً عليلة.

آه... أودّ أن أعود إلى حيث لم يعدْ أحد... إلى الشباب، إلى لحظات الخيار، إلى مستقبل أمامي وليس خلفي، أتوق إلى فرصة أخرى... لكن شروط اللعبة قاسية... مرّة واحدة... خيار واحد... طلقة واحدة تخترقنا ببطء قاتل حتى النهاية.

صديقة الصبا... أين ولّى ؟ عند هذا الباب كم مرّات توادعنا ضاحكتين ممتلئتين حياة... واليوم أودّعك مئذنة مكسورة... مرميّة فوق عربة... تقلّها إلى المجهول .

عيناها تتابعانني بحسرة... أُشيحُ بوجهي بعيداً وقد فاضتْ عيناي بدموع لم تجفّ إلا بعد ساعات... كنتُ أبكي من؟ كنت أبكيني... أبكي حياة تخمد رويداً رويداً في جسد طالما ضجّ بها... أبكي زمناً ثميناً ضاع في اللا شيء...

من هنا ذات يوم بدأتُ... لكنني اندفعتُ في اتجاه نهاية سريعة... في الأعماق كنتُ أدركها... وكذلك الجميع... لماذا أستعيد تكراراً هذه الفترة «قصّة موت معلن» لغابرييل جارسيا مركيز؟ الكلّ فيها كان عارفاً أن البطل سيُقتل... لكن أحداً لم ينطق... والكلّ كان عارفاً أنني اخترتُ الطريق الأقصر إلى حتفي...

إذاً ... ماذا بعد؟...

هل سأعود أبداً كما كنتُ... أم سأظلّ أتوكّأ على بعض أسرتي الطيبة... كي أسير وأسيّر أمور حياتي؟...»

لدى الطبيب:

«في غرفة الانتظار في عيادة الطبيب... الدقائق تمرّ ببطء شديد، أفكّر وقد أنهكني الانتظار... «غريب كيف يروّضنا المرض فنقبل ما كنا نثور قبلاً لأتفه منه».

«آسف... مضطرٌّ أن أدعكِ تنتظرين قليلاً... ربما لساعة»، في وضع آخر... كنت سأستشيط غضَباً...، لكنني – لدهشتي – سمعتني أجيبُ الطبيب بلطف: «لا بأس... بالتأكيد سأنتظر».

درس عملي في نسبيّة الأمور، أدرك الآن كيف تتغيّر مفاهيم الأشياء وقيمها بحسب الظروف، فتختلف ردود أفعالنا بحسب حالاتنا النفسية ومعطيات واقعنا، وتصير كلمة محبة صادقة... ربيع يحيي قلب إنسان، لابد أن أضع ذلك نصب عيني –بعد هذه التجربة المريرة– وأنا أحلّل سلوك الآخرين... كم كان حكيماً أبي –رحمه الله– إذ اعتاد أن يردّد «ضعي نفسك دوماً مكان الآخرين»...

أبي؟ لماذا أذكره كثيراً هذه الأيام، أتاني البارحة في الحلم... هل كانت تلك إشارة؟.

منذ زمن لم أره بوضوح كالليلة الماضية، كان وجهه الأبيض الهادئ غائماً بشحوب الهم، وقفنا طويلاً معاً... سألني عن الأحباء... واحداً واحداً... طمأنته، لكنه تجنّب أن يسألني عن صحتي رغم أنني كنت موقنة أنها ما كان يشغله...

وجهه الحاني ما زال أمامي، ونظراته القلقة تحفر ذاكرتي، أشعر أنني قد رأيته فعلاً... آه يا أبي ليتك لم ترحل... كم أحتاجك الآن، مهما بلغتُ من العمر... ستبقى مظلّتي التي أحتمي بها من هموم الحياة... والحضن الوحيد الذي أشعرني حقاً بالأمان...»

* * *

صغيرتي:

«صوت ابنتي المتلهّف على الهاتف يمزّق قلبي، تخبرني عن حلم أخافها ليلة البارحة، تراءيتُ لها فيه أموتُ، سألتني بجزع إذا كنتُ على ما يرام، نفيي بصوت حاولته مرحاً لم يثنها عن عزمها قطع رحلتها والعودة...

يا لنقاء حدسها!... برادارها الفائق الحساسيّة، كانت موقنة أنني لست بخير، وأصرّت أن تعود، رغم أنها ستضطر –وهي ابنة الرابعة عشرة– للتبديل بين طائرتين في مطار أوروبّي واسع.

أقلقتني فكرة اللقاء... كيف سأستقبلها؟ كيف ستتقبّل فكرة أن أمها التي غادرتها قبل يومين بكامل صحّتها... لم تعد تقوى الآن على السير؟.

قررتُ أن أتظاهر بالنوم كي أؤجّل مواجهة الأمر إلى الغد، لكنها اقتحمَتْ غرفتي وتلمّست طريقها في الظلام إلى سريري.

«أّمي»...

أتظاهرُ بالنوم ...

«أمّي»؟...

لم أحتمل أن تكررها ثالثةً، مشتاقة لها بجنون...

أفتح عينيّ وذراعيّ على اتساعهما لتهطل في حضني كغمامة، أضمّ رأسها فوق صدري، ننفجر معاً ببكاء القلق والشوق...»

* * *

حلول يائسة:

«رغم أنني في حالة قطيعة مع العالم الخارجي، لكن صديقاً عزيزاً أصرّ على اقتحام عزلتي، بادرني بباقة ورود رقيقة، وطفق يحدثني بحماس عن مشاكل الحسد أو كما يقولون «صيبة العين»، قبل أن يناولني على استحياء ورقة صغيرة... مدوّن عليها رقم هاتف...

جالت في خاطري قصص العلاج بالسحر والشعوذة التي سمعتها، وهو يهمس كمن يبوح بسر خطير «هذا رقم شيخ جليل يفكّ السحر ويحمي من الحسد و... و...».

احتراماً لصدق اندفاعه ومحبته، لم أُبدِ له استيائي، لكنني استهجنتُ أن يعتقد شخص متعلّم مثله بهذه الخزعبلات، أنا أيضاً أؤمن بشرِّ «حاسد إذا حسد»، لكنني موقنة أن الأبحاث ستفسّر مستقبلاً بشكل علمي أمر الأشعة أو الطاقة التي ترسلها بعض العيون لتؤثّر على الهالة الكهرطيسيّة المحيطة بالآخرين، مما يخلّ ربّما بتوازننا أو ينقص مناعتنا... لكن أحداً غير الخالق... أحداً سواه ... ليس بيده أن يشفي أو يحمي أو يعيد الزمن إلى الوراء.

في غفلة منه ... أرمي الورقة الصغيرة في سلّة المهملات ...قد عاهدت نفسي يا صديقي منذ وعيتها –حتى في ذروة الألم وجحيم المعاناة– لن أخدعها أبداً...»

* * *

هواجس:

«صار أوّل ما أبادر إليه ما أن أفتح عينيّ كل صباح، أن أحرّك كل ما فيّ، أطرافي... أصابعي واحداً واحداً... رقبتي... رأسي، أطمئنّ أن كلّ شيء في جسدي ما زال يحسّ ويتحرّك، فبعد يوم استفقتُ وقد تمرّدتْ ساقي عليّ، صار هاجسي أن يتكرّر الأمر ثانية أيّ صباح ...

عشرون يوماً مضتْ... عشرون دهر عذاب... وها أنا بعد ثلاثة أسابيع بعيداً عن العمل أكتشف أن الأرض لم تكفّ عن الدوران، أنا فقط من توقّف عن الدوران... ومازالت الحياة مستمرة، الركب تابع رحيله وخلّفني وحدي حيث سقطت... فهو لا ينتظر أحداً... لماذا إذاً... لماذا... استهلكتُ نفسي بكل ذلك الجنون خلال السنوات الماضية... إلى أن خرجتْ قاطرتي عن السكة؟، المرارة تقتلني... أضعتُ ربيع حياتي أركض ليل نهار... ألهثُ خلف سراب يهرب... والحياة تنسلّ من بين أصابعي... فأغرف لا شيء... المحصّلة لا شيء... لا طعم باق في الحلق... لا رائحة تؤجّج الحواس، والقلب... لا شيء يلجه أو ينبع منه... سنوات ثمينة تلاشتْ هباء... افتقدتُ فيها معنى الأشياء الحقيقيّ... ومن داخل سجن قشرة صلبة تعامل محتواي الهش مع محيط لم يصله أبداً».

توقفتُ هنا عن القراءة إذ أُرهقتْ... أرهقتني شحنات كلماتها... وأرهقني صداها داخلي... هل حرصتْ سلوى أن أقرأ معاناتها... لأشاركها فقط؟ أم أنّها رسالة –وهي ترى فيّ الكثير منها– لأعتبر أنا الأخرى قبل فوات الأوان؟... أرادتني أن أتوقف بملء إرادتي لأسأل نفسي لماذا وإلى أين؟... قبل أن أندم حيث لا ينفع الندم...

مضتْ أشهر... سلوى تقاوم بشجاعة تثير الإعجاب... عسى المولى يستجيب ابتهالاتنا الصادقة لها بالشفاء...

أمّا أنا... فما زلتُ حتى اللحظة مستغرقة في حالة مراجعة حقيقية مع ذاتي... أبتعد عنها قليلاً لأبصرها في سياقها... أعيد رؤية الشريط من أوّله... وأحاول استشراف نهايته... تارة تلو الأخرى... وللغرابة أبصر جديداً كل مرة... أسأل نفسي أسئلة طالما خلتها بديهيّة... فلا أهتدي إلى جواب... أستجمع شجاعتي لأعيد – بموضوعيّة – تقييم الأمور وترتيب الأولويات... أبتعد قليلاً عن حلبة سباق الحياة اللا منطقي... حيث يركضون دون توقّف... بلا تفكير... متعامين عن أن شارة الوصول الوحيدة... هي الموت...

أنسلّ خارجهم... أستنشق نفساً عميقاً يحيي القلب... أفكّر بهدوء... أحاول تحديد موقعي بوضوح... أسأل – لأول مرة– «أنا» الحقيقية... لا «أنوات» أُلبستها... أسألها بصدق وواقعية... عما تريده حقاً في مسيرة قصيرة مهما طالتْ؟...

دقّات عقرب الثواني تملأ رأسي... وعقلي منهمك بأسئلة لم يعد بوسعه الاستمرار دون أن يجد لها جواباً... وتوابع زلزال سلوى ما زالت تتوالى على شواطئي... وتتداعى تباعاً –بعد انهيارها المفاجئ– أركانٌ خلتها راسخة...

منذ شهور خمسة... أسعى –دون جدوى– لإخماد حرائق أضرمتها في حياتي... سطور محنة قاسية... خطّتها يد صادقة... فوق أوراق دفتر بنيّ صغير... يفوح برائحة المستشفى... والحقيقة.

فيضُ الخواطر

مكمنُ الحقيقة والحلم . .

أُمتّع ناظريّ بمشهد مريح لبقايا خضرة غسلتها أمطار صباح تشرينيّ، وذهب الخريف المحترق المتناثر هنا وهناك، أفتح نافذة السيارة بما يكفي لأستنشق عبير الأرض المبتلّة، أنتعش، كليّ توق للوصول إلى المكان الذي يختزل زمناً جميلاً وصور أحباب وأحلام ومشاعر لا تتكرر.

هناك، فوق إحدى قمم جبال الشوح، شرقيّ مدينة اللاذقية، عروس الساحل السوري، بُنيتْ – منذ أكثر من قرن– بضع دور من الحجر المحلّي، قروميديّة الأسقف، وير ذو كنيسة مهيبة تطلّ على منظر طبيعيّ مذهل ملائم للتأمّل والتعبّد، مسجد يبدو –ببساطته ودفئه–مألوفاً لزائريه، يتّكئ على كتف جبل ملتحف بغلالة أشجار، فندقان متواضعان وسوق، ودار كبيرة للحاكم ما زالت تطلّ على الساحة الرئيسية بطرازها المعماريّ الجميل، وأُطلق على هذا التجمّع الوديع اسم «صلنفة»، وعلى تلّة قرب مدخلها، في بيت حجريّ جميل ذي نوافذ خشبية حمراء، بناه أبي في أواخر الستينيات، اعتدنا أن نقضي صيف كل عام.

في طريقي إليها... وبعد بلدة الحفّة، أترجّل قرب تنّور جذبتني رائحة خبزه الشهية، أتناوله ساخناً من يدي المرأة الريفيّة العجوز، أشدّ السترة الصوفية فوق كتفيّ، أتّقي بها برودة جوّ المنطقة التي يزيد ارتفاعها على ١١٠٠متر فوق سطح البحر، لطالما أضفى هواؤها البارد النقيّ احمراره اللطيف على خدودنا بعد نهار مشيناه بطوله في رحلات استكشافيّة لا تُنسى فوق الطرق المتعرّجة الضيقة، رحلات لم تكن بالنسبة لنا أقل أهمّية من رحلة كولومبس رغم أنها لم تتعدَ الجبال القريبة، ونهاية المدى كانتْ يومها محطّة تقوية البثّ فوق قمّة جبل النبي يونس القريبة، نُطلّ من فوقها على اللوحة المبهرة لسهل الغاب الخصب، سجّادة بديعة الألوان والخطوط على مدّ البصر.

أطوي المسافات ويُطوى معها الزمن، فيرنّ في أذنيّ صرير عجلة العربة الخشبية الصغيرة فوق الحصى، تنام فيها لعبتي، أدفعها وأختي، بفستانينا المتشابهين، نهذي بجملة ألفاظ لا معنى لها، متظاهرتين أمام أطفال الجيران بإجادتنا لغة لا يفهمونها.

نتجمّع كل ليلة وأمّي وراء نافذة ليلٍ لا تشقّ ظلامه إلا أضواء سيارات قليلة قادمة، بانتظار عودة أبي من عمله في اللاذقية التي كانت تبدو بعيدة مع أنها على بعد ٥٠ كم فقط، وكنتُ أسْبَقهم في تمييز ضوء سيّارته، أصرخ بفرح وتتعالى صيحاتنا متسابقين على الدرج لاستقباله، ليبدأ ليل صلنفة البهيج، بعضنا يلعب الورق أو طاولة النرد وبعضنا الآخر يشاهد التلفاز، وتختلط ثرثرة هموم النساء بضحكات الأطفال الجذلى...

وفي برد ليلها ألتصق بأختي حتى إذا علا صوت «الجقل»، الحيوان الصغير الذي يأتي من الغابات القريبة، تحتضنني مطمئنة أنه لن يقترب لأنه يخاف ضوء الشرفة.

تفاصيل تلك المرحلة منقوشة في ذاكرتي بشكل غريب، مجلّلة برومانسية أضفاها شوقي المتزايد لأوقات لا تنسى، هي ملجئي حين أحنّ إلى طفولتي، فأراها في أحلامي، وأراني أتطاول إلى قبضة الباب أفتحه صباحاً للعمّ «علي» بلباسه الريفي المميز الذي كان يثير فضولنا وإعجابنا، «الشروال»

الأسود الواسع، والقميص الأبيض النظيف، وعمامة رأسه البيضاء وشارباه الدقيقان، لكن ما كان يعنينا فعلاً هو إناؤه النحاسيّ العجيب بحليبه الطازج اللذيذ، تقدّمه أمي لنا ساخناً في أكواب زجاجية ملوّنة فوق طاولة المطبخ الحديديّة الحمراء، الله... ما كان أطيب كعك «القرشلّه» نغمّسه فيه! ترى هل ما زالوا يخبزونه هناك؟، شُرب آخر قطرة في كوب الحليب كان شرطاً أساسياً لفتح باب خزانة السكاكر، باب جنّتنا الذي يُفتح على ما نتمنّاه من أطايب الحلوى.

ها قد وصلتُ، مرّ الطريق سريعاً كما السنون العشرون الماضية، أشجار التفاح الطيّب خالية الوفاض، والبلدة الصيفية شبه مهجورة في هذا الوقت من العام، أما أنا فأفضّلها شتاءً، أستعيدها كما أحببتها، سيّدة ارستقراطية هادئة، تغيب ملامحها في غموض غلالات الضباب، تتدثّر بأناقة بمعطف ثلجيّ مبهر البياض، ورغم الزحف العمراني الحديث الذي يبتلع تدريجيّاً غاباتها المشهورة وأشجارها الباسقة، فما زالتْ صلنفة بالنسبة لي كما عرفتها قبل عقود، غابة خضراء عملاقة، وبضعة بيوت بسيطة تتناثر بشاعريّة بين أحضان الصنوبر والشوح.

أصعد الدرج الذي يكاد يختفي تحت أوراق الخريف، أنين تكسّرها تحت قدميّ يفسد سكوناً لا يشوبه عادة إلا وزيز صراصير الحقول وحفيف أغصان الأشجار، ربما أدين لهذا السكون بعشقي المبكر للمطالعة.

من الشرفة ألمح بيوتاً جديدة قد بُنيتْ، شوهتْ للأسف جمال لوحة حفظتها عن ظهر قلب، ولكن ما زال يمكنني مشاهدة خط البحر ملتمعاً في الأفق البعيد خلف تلك الأودية والجبال، والدرب الذي يتسلّق التلة، فوقه ألفنا أن نرى بائع حلوى «السمسميّة»، بشعره الأبيض وقامته القصيرة الممتلئة وإزاره القصير يحيط بخصره، يحمل «صينيّته» العامرة وينادينا بابتسامة واسعة لم يبق فيها الكثير من الأسنان «سمسمية... سمسمية»، فنطير إليه متدافعين.

أُجيل بصري في المكان، يبدو أن أحداً لم يأت إلى هنا منذ زمن، محزن أن أجد البيت الذي اعتدته عامراً وحديقته –التي كانت ذات يوم غابة دنيانا كلها –مهجوراً وكئيباً، حتى شجرة الكرز الفارعة الطول– وقد اعتقدناها طويلاً قمّة العالم –هرمت وذبل شموخها، كل شيء يتغيّر، ألم يرحل أبي –وهو من زرعها– أيضاً عن هذه الدنيا؟.

ما زالت غرفته على حالها، وكذلك أريكة الشرفة الوثيرة التي كان يحبّ أن ينام فوقها في نسائم عصر صلنفة الرقيقة، حيث كنت أتسلل على رؤوس قدميّ لأتأمّل وجهه الطيب المسترخي، أوقظه مرّات وقد أقلقني شخيره الذي ينخفض تارة ويعلو أخرى، فيرمقني بعتاب وحنان قبل أن يعاود الاستغراق في نومه، فلسفته التي ما فتئ يرددها «أن الله قد خلق النوم شفقة ورحمةً بعبده المتعب».

إنّه العصر... تردد الأودية صدى أذان مسجد صلنفة الرخيم، أصغي بمزيج متعة ورهبة، ما زال له وقعه الخاص في نفسي، أهو الصوت ذاته أم يخيّل إلي؟.

قبل أن أقفل عائدة، أستنشق نفساً عميقاً، أخزن عبق هواء يخترق الحنايا ويفتح كل موصد، وأقطف حزمة من أوراق أشجار الصنوبر الرفيعة، ابتسم وأنا أتذكّر كيف اعتدنا صغاراً أن نغزل منها

عقوداً نتزيّن بها، كانت لنا يومها أثمن جواهر الدنيا، وكم يدهشني اليوم أن أكتشف أنّها بالنسبة لي مازالتْ كذلك.

المدينة التي تسكنني

كعادتي حين تفيض بي أحاسيسي وتتشابك أفكاري... أبحث عن الصفاء الداخلي في دروب دمشق القديمة، أمشي حتى التعب... بل حقيقةً... حتى الراحة.

أمضي في الأزقّة القديمة، أتأمّل، أرسم، أدوّن ملاحظاتي، أستغرق، أطأ بعداً عاشراً، وأحلّق في نشوة التقاء الفرع بالأصل.

هذه المدينة التي لا تكفّ عن إدهاشي، وأزداد كل يوم عشقاً لها وامتلاء بتفاصيلها، فلا أملّ تأمل كل ما فيها... أنا من يسكنها أم هي من يسكنني؟.

أوقن مع كل خطوة أخطوها في شراييني أنها مُبحرة في شراييني... مزروعة هنا في عقلي الباطن... أستشفّ خطوط ماضيّ ومستقبلي في كل خط صغير رسمه الزمن على جسدها...

ألمس في انسيابية خطوطها طيبةُ أمي، وفي انسجام تفاصيلها حكمة أبي، وفي نداء باعتها تناثر الناس في دروبها، وحتى في ظلالها التي ترميها بحنان هنا وهناك، تتراءى لي وجوه الأهل... أحلام العمر... سجّادة صلاة أمي... سلالم بيتنا... أسماء الأصدقاء... أغانيّ المفضلة، و... يروقني حتى ضجيجها، أصغي فيه لضحكات أحباب افتقدتها زمناً طويلاً، وحتى الأشياء التي خلتني أنفر منها، التهمها بعيوني دون ارتواء.

أدلفُ إلى اقرب بيوتها حينما يتملّكني التعب، استقرّ في «صحن الدار»، تطربني ثرثرة البحرة المتدفقة... أعبّ أريج الياسمين والفل... أحاول الاحتفاظ به داخلي ما استطعت.

أستحضر وصف الشاعر نزار قباني لبيت طفولته الدمشقي إذ يقول: «كنتُ إذا تعثّرتُ أتعثّر بجناح حمامة... وإذا سقطتُ أسقط على حضن وردة...»، رائع تشبيهه لهذا البيت «بقارورة العطر»؟ مضيفاً: «ثقوا أنني بهذا التشبيه لا أظلم قارورة العطر... وإنما أظلم دارنا، والذين سكنوا دمشق، وتغلغلوا في حاراتها وزواريبها الضيقة، يعرفون كيف تفتح لهم الجنّة ذراعيها من حيث لا ينتظرون».

وكم كان نزار منصفاً، أليس كل بيت دمشقيّ كوناً كاملاً بحديقته... بمائه وخضرته... بنافورته... بياسمينه وفله... بسقوفه المنقوشة... وهدوئه المنعزل العالم الخارجي... إيوانه المدروس، ملقفه الذي يضاهي المكيّفات الحديثة، تصميمه الذي عكس مفاهيم حضارتنا حول تواضع المظهر وغنى الجوهر، استيعاب تصميمه لحركة الشمس عبر ساعات النهار وميلها عبر الفصول، حتى عرف البيت الدمشقيّ «الهجرة اليوميّة» «والهجرة الفصليّة»، إذ يتنقل الساكنون بين أطرافه الحانية فيجدون «السكينة»، التي نتنقل اليوم بين أطراف العالم بحثاً عنها... وقلّما نجدها.

وأنا أجد سكينتي هنا، بين جوانح هذه المدينة التي تحتضن أعماقنا في أعماقها، هنا أجد نفسي، أستشفّ ملامحي من ملامحها، تمنحني الهدوء الداخليّ والشعور بالأمان...

أمامها أشعر أنني – بالإذن من كزنتزاكيس – «تعبير لحظويّ»، إذ أراها عظيمة... شامخة... باقية، بينما أجيال كاملة من البشر تصعد من التراب وتعود ثانية إليه...

يقول الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي: «إن للأمكنة في القلوب اللطيفة تأثيراً»... وأنا لا أوّدع دمشق إلا وقد أودعت قلبي برمّته أمانةً عند إحدى بواباتها.

العمارة المؤدّبة

انبثقتْ كنبتة من الأرض... من ذات عناصرها الأصيلة، احترمتْ تفاصيل الحياة صغيرها وكبيرها، راعتْ تقلّب الفصول واستوعبتْ دورات التاريخ، ومازلنا نصغي فيها إلى نبض الأولين...

تلك عمارتنا التي «تزوّجتْ الأرض»... أدركتْ بفطرتها المعاني الحقيقية لعلاقتها بالمحيط والبيئة، فلبّتْ بأسلوب جميل حاجات الناس، تفاعلتْ معهم وعكستْ بصدق مفاهيمهم ومعتقداتهم، تقاليدهم وأفكارهم وعتّقتْ خبراتهم وتجاربهم عبر آلاف السنين.

وبما أن العمارة وليدة المكان والزمان والاحتياجات، فقد بلغ من الارتباط وتبادل التأثير بين العمارة والإنسان أن ذهب الكثيرون إلى الربط بين الطابع المعماري وبين ملابس الإنسان وملامح وجهه في مختلف المناطق والعصور، كالربط مثلاً بين الجسم الممشوق للشاب الإغريقي الملتفّ بردائه وبين العمود الدوري الإغريقي بقنواته الرأسية، والربط بين شكل القبّة والعمامة العربية، وشكل السقف الصينيّ بأطرافه المرتفعة مع شكل القبعة الصينية والملامح الصينيّة ذات فتحات العيون والحواجب المائلة.

والعمارة التقليدية العربيّة عموماً، واليمنيّة خصوصاً، مدرسة هامّة في عمق الترابط بين الإنسان والعمارة، ورغم أن بعضهم يذهب إلى ربط أشكال الزخارف والنقوش في العمارة اليمنيّة بشكل أحرف الكتابة اليمنيّة القديمة (المسند) وطريقة تعبيرها، لكن العين تلتقط بسهولة التشابه العفويّ بين الزخارف التي تطرّز واجهات المباني اليمنية ورسوم الزي اليمني التقليدي... فوق كل ما صنعته يد إنسان في ذلك «البلد المنقوش على الحجر»، وكأن اليمنيّ يسقط النقوش المحفورة في أعماقه نحتاً على حجارة البيوت وعلى خشب الأبواب والنوافذ والصناديق وعلى فضّة الأساور والمكاحل والأحزمة والخناجر... يودعها كلها بعض روحه...

ولأن اهتمام العمارة العربيّة عموماً –واليمنيّة خصوصاً– بالجمال لم يتعارض أو يقلّ عن حرصها على تأدية الوظيفة، فإن جمال الزخارف في واجهات الأبنية اليمنية وتفرّدها قد استخدم كلغة تعبير لا كعلامة ترف كما ألفناها في باقي مناطق العالم، ولكثير من هذه النقوش والفتحات المختلفة المقاسات والأشكال وظيفة مهمّة يؤدّيها، كالتهُويّة أو التكييف أو الإضاءة أو حماية الخصوصية بل وأحياناً الناحية الدفاعية، وحتّى اختيار طلاء الزخارف وأطراف النوافذ بالكلس الأبيض (النورة) لم يكن لجماليته فحسب، بل لطرد الحشرات وعكس بعض أشعة الشمس الحارقة أيضاً.

عمارة الأجداد عالم غنيّ، نعثر في رحابته على ما لا ندرك أننا نفتقده، على أجوبة أسئلة حيرتنا... نتلمّس مكاننا بمواجهة ما يدعى «العمارة الحديثة» التي أسأنا فهمها، فقلّدناها دون تفكير، استوردناها جاهزة كالمعلّبات دون نكهة، كما هي، بموادها وأساليب بنائها وفلسفتها... وحتى «توابعها» أو ربما أسبابها، من عادات وسلوك وتقاليد ولباس وسلبيّات، مما لم نستطع في العمق تبنّيه، وما زلنا نعاني الانفصام المؤلم... بين عمارة تعيش سجينة داخلنا وعمارة نعيش سجناء داخلها، وفي حين تغدو قصور الشام والقاهرة وأوابدنا التي شهدت التاريخ في مختلف فصوله «عمارة صمت»، نمسي نحن غرباء داخل بيوتنا... بل وأجسادنا... «والغربة في البيت – كما يقول شيخ المعماريين حسن فتحي – أبشع أنواع الغربة».

والجدل يطول حول الأصالة والمعاصرة، والفرق كبير بينهما، فكثير من الأعمال المعماريّة الحديثة لا تستطيع التلاؤم مع مناخنا أو حاجاتنا الخاصة أو تقاليدنا، والمشكلة أن الخطأ المعماري قد يحتاج عقوداً أو قروناً أحياناً لإصلاحه، هذا إن أمكن إصلاحه أصلاً، وليس حلماً بل هو تحدّي وجود أن نكرّس عمارة عربيّة حديثة تستمدّ قيمها ومزاياها من روح العمارة العربية الأصيلة، وتستفيد في ذات الوقت من تسهيلات التكنولوجيا لتُلبي احتياجاتنا العصرية، شريطة أن نختار بذكاء مما تزخر به عمارتنا العريقة من قيم معمارية هامّة ما زال الكثير منها صالحاً للاستمرار وقابلاً التطوير.

أردتُ أن أقول... إنَّ علاقة الإنسان بالعمارة علاقة تبادليّة راقية متباينة التأثير، وبالتالي فدعوتي هنا إلى عمارة عربيّة حديثة ممتلئة بهويتها ليست من أجل الحجر بل من أجل البشر... وإذا كان الكاتب عيسى علي العاكوب يقول في مقدّمة ترجمته كتاب «فيه ما فيه» لأحاديث مولانا جلال الدين الرومي: «نحن في غاية الحاجة إلى الأدب المؤدّب»، فأنا أقول هنا نحن في غاية الحاجة إلى «العمارة المؤدّبة»، أجل... هناك أدب للعمارة كما هناك أدب لكل شيء، وأدب العمارة أن تحترم الإنسان والمكان والزمان.

«مصباح علاء الدين» . . . المعاصر

ما طالعتُه في صغري من أدب الرحلات، مثل «حول العالم في ٢٠٠ يوم» و«أعجب الرحلات في التاريخ» للأستاذ أنيس منصور، و«خواطر مسافر» للدكتور عبد السلام العجيلي وغيرها من المؤلفات الشيّقة... كلها أججت توقي للسفر...

لكنّ ما خبرته منه في حياتي لاحقاً، كان مختلفاً... لم يشبه ما تخيّلته من خلال قراءاتي، ربما لأن رحلات الاستكشاف والسياحة والاستجمام لاتشبه رحلات العمل والمؤتمرات السريعة المُتخمة بالضغوطات والالتزامات والمواعيد، تلك التي ترهقك وتبعثر حياتك وتقوّض علاقاتك الاجتماعية، تنخر استقرارك وأعصابك، وما أصعب أن تحشر بيتك ومكتبتك وشؤونك الصغيرة ولحظات حياتك المهمة في... حقيبة.

وها هي حقيبتي، أحملها للمرة الثامنة خلال أقل من شهرين لأسافر خارج البلاد، وكأنّ الشاعر ابن زريق البغدادي قد وصف حالي حين قال:

ما آبَ مِن سَفَرٍ إلا وأزعَجَهُ رأيٌ إلى سفرٍ بالعزمِ يَزْمَعُهُ

أتوكّل على الله، ومع أولى لمسات أشعة الشمس فوق جبين دمشق التي لم تصحُ بعد... أجرجر نفسي بصعوبة، لأترك دفء الفراش المريح وأسابق الفجر إلى المطار.

غالبتُ نعاساً تبثّه رتابة إيقاع السيارة التي تتهادى في سكون الشوارع الخالية، داعب قلبي الحنين لأسرتي الصغيرة النائمة، فحاولتُ أن أشغل نفسي بالتفكير...

«كان الله في عون من يعملون في مجال الطيران وعائلاتهم، فكّرتُ، مشاقّ السفر المتكرر وفراق عقب فراق... وكيف إذاً بحياة الرحّالة الأوائل كابن مجاور، مبارك بن لندن ونيبور وغيرهم؟... لابدّ أن الطموح والرغبة في اقتحام المجهول وحبّ المغامرة وأحياناً خدمة العلم أو السياسة، هوّنت التعب ومشقّة الغربة على هؤلاء الذين اختاروا أن يسعوا لاستكشاف آفاق الأرض ومجاهلها، مقدّمين في بعض رحلاتهم، قبل كولومبوس وبعده، معلومات هامة كانت أساس إنجازات عظيمة في مختلف المجالات.

ولعلّ الموقع الأهم في قائمة الرحالة الطويلة، يتصدّره «ابن بطوطة»، المؤرخ الجغرافي الذي قطع في رحلاته المتواصلة مسافة نحو ١٢٠.٠٠٠كم، بدأها في مقتبل عمره سنة ١٣٢٤م من مسقط رأسه «طنجة» قاصداً الحج، ثم جاب الأمصار مشارقها ومغاربها، وسجّل، إلى جانب وصفها الجغرافي، ملاحظاته عن طباع شعوبها وتقاليدهم وحياتهم الاقتصاديّة، في مؤلفه «تحفة النُظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار».

وهل كان الرحّالة الطنجي ليستمر في ترحاله ثلاثين عاماً لو لم يكن في السفر ما يُعشق؟... ما ينعش القلب ويجدّد الأحاسيس ويبعد الملل والكآبة، على رأي أبي تمّام:

وطولُ مُقامِ المرءِ في الحيِ مُخلِقٌ

لديباجَتَيهِ فاغترِبْ تَتَجدَّدِ

فَإنّي رَأَيتُ الشمسَ زيدَتْ محبّةً

إلى الناسِ أنْ لَيستْ عَليهِمْ بِسَرمَدِ

المتعة في الرحلة ذاتها وليست في الوصول... ومتعة أي رحلة – في الأساس – هي الصحبة، ولذلك يقولون: «الصديق قبل الطريق» ، وبلغة الشاعر المعولي العماني:

ولا تسافرْ مع الأنذالِ في طرقٍ

وكنْ مع المرتضى إن كنتَ ذا سفرَ

ورفقة السفر فرصة لا تُضاهى لاكتناه أعماق الناس، ومحكّ لاختبار جوهرهم، نقول في أمثالنا الدارجة «قالوا: هل تعرف فلاناً؟، قال: نعم، قالوا: هل سافرت معه؟، قال: لا، قالوا: إذاً فأنت لا تعرفه».

ينتشلنا السفر من دوّاماتنا الصغيرة، يشرع نوافذ نبصر منها اتساع العالم، يُذكّرنا أننا جزء لا متناهي الضآلة في كتلته اللامتناهية الضخامة، يدعونا أن لا نهرق بغباء عمراً ثميناً يتلاشى بسرعة محزنة مع دوران الكرة العملاقة، في أقلّ من برهة من عمر الكون السرمدي...

والنأي عن «من» و«ما» اعتدنا، يطلق سراح العقل، فنتأمّل بواقعية في حقيقة «سفر كبير» بدأناه يوم وصلنا هذه الدنيا، ويقول عنه ابن أبي البشر:

ونحن سَفر مطايانا إلى أمدٍ أعمارنا وفنون العيش أسفارُ

لا ينفع المرء إلا ما يقدّمه لا درهم بعده يبقى ولا دارُ

أتوقّف عن الاسترسال في هذه الأفكار وقد وصلنا المطار... أتأمّل من خلال الواجهة الزجاجية الكبيرة طائرات مختلفة الأحجام والأشكال، وأفواجاً متنوعة من البشر تسعى في مختلف الاتجاهات... أحمل حقيبتي الصغيرة متوجّهة إلى بوابة المغادرين، وأنا أدندن –كعادتي قبل كل سفر– بصوت خفيض: «يا وابور قللي رايح على فين»...

ودون أن يخبرني «الوابور»، وأينما كانت الوجهة، ففي كلّ مرّة أسافر فيها يزداد اقتناعي أن الشاعر الذي قال: «في السفر خمس فوائد»، لم تكن لديه الخبرة الكافية بالسفر، يبدو أن ابن وكيع التنّيسي كان دبلوماسيّاً للغاية، فأغفل خمسين سلبية وأتى بخمس ايجابيات، أو ربّما كان شديد التفاؤل بحيث لم يرَ إلا القليل المليء من الكأس.

بل وربما ارتبط كلام صاحبنا بزمنٍ كان السفر فيه سفراً «حقيقياً»، فإذا كانت التكنولوجيا قد سهّلت حياة الإنسان، فقد أفقدتها برأيي –من زاوية أخرى– بعض ملامحها الإنسانيّة، والسفر الشاق

لأيّام أو شهور فوق الجمال أو العربات، كان يمنح السفر معناه ومذاقه ومتعة مغامرته وبهجة وصوله، أما اليوم فبإمكان بعضنا أن يتناول الغذاء في بلد ويتعشى في آخر، دون أن يشعر بفارق المسافات، لا سيّما إذا كان نزيل أحد الفنادق الكبرى، وكلها تتشابه... وتلغي هُويّة المكان .

من «مصباح علاء الدين» المعاصر، التطوّر العلمي، خرجت التكنولوجيا مارداً سحرياً، يخدم الإنسان ويوفّر وقته، يذلل له الصعوبات ويخفف عناء التفاصيل، يعتصر العلم ويسخّر تراكم خبرات الأولين، ليحوّل –قدر الإمكان– حياتنا القصيرة إلى رحلة مريحة ممتعة، وشتّان بين من استوعب هدف العلم الحقيقي النبيل، وبين من أفرغه من محتواه الحضاريّ والإنسانيّ، مبدّلاً نعمته نقمة، ليدمّر بدلاً من أن يعمّر، وربّما ما زال الندم يأكل العالِم «نوبل» في قبره، إذ لم تفلح الجوائز المالية لمؤسسته الحضاريّة الضخمة على مرّ السنين، في محو وصمة اختراعه متفجرات الـTNT، ولن تكفّر أبداً عن قتلها ملايين البشر .

تكنولوجيا رائعة وأحياناً... «مروّعة»، بإلغائها –مع المسافات– أموراً أخرى منها الخصوصيّة، فقد أصبح مألوفاً –مع انتشار خدمة الهواتف الدولية الجوّالة (الرومينغ)– أن تتصل بجارك صباحاً على هاتفه المحمول، فيحرجك أنك أيقظته في ليل الطرف الآخر من الكرة الأرضيّة (نتيجة فارق التوقيت)...

«الحزام من فضلك»، ألبّي طلب المضيفة اللطيفة... وأستعدّ للإقلاع... ساعات قليلة ونكون في قارة أخرى على بعدٍ شاسع... أليس الأمر مذهلاً؟...

تكنولوجيا تبتلع المسافات... تلغي حدود المكان والزمان... بشكل بات يصعب استيعابه، تشغّل التلفاز فتشاهد بأم عينك ما يحصل في ذات اللحظة على بعد آلاف الأميال، أو تنقل لك المركبات الفضائيّة صور القمر والمرّيخ حيث لم يصل حتى خيالك، فتسبّح باسم من بإذنه أُتي بعرش بلقيس إلى سليمان «قبل أن يرتدّ طرفه».

وفي حين كانت الرسالة في القرون الماضية تستغرق أشهراً لتنتقل من بلد إلى آخر مجاور له، صار الخبر اليوم يعمّم على معظم سكان العالم في دقائق، عبر شبكات أجهزة الإعلام ووسائل الاتّصال العبقرية.

وبالتأكيد فأجدادنا لم يتصوّروا يوماً أن سفينة الصحراء (الجمل) وسيلتهم الرئيسيّة في التنقّل، ستتطور إلى سفينة الفضاء في عصرنا، وأن لا يكون أيّ مكان عصيّاً على وسائل مواصلاتنا العصرية السريعة، ولو عاش المسكين «كعب بن زهير» في أيّامنا، لما أوجع قلوبنا بقصيدته الحزينة المعروفة عن صعوبة الوصول إلى حبيبته سعاد:

أَمسَتْ سُعادُ بأرضٍ لا يُبَلِّغُها إلا العتاقُ النجيباتُ المراسيلُ

وكان ليكفيه حجز تذكرة على أي طائرة متوجّهة إلى أقرب مدينة من مكان إقامة الآنسة سعاد، بل وربما كان استمتع في رحلته إليها، على متن الطائرة الفرنسية العملاقة الحديثة (ايرباص٣٨٠)،

مسترخياً على حافّة أحد مسابحها، ومتجوّلاً بين أسواقها ومطاعمها ومختلف أسباب الرفاهية المطلقة فيها... فوق الغيوم.

ينتشلني صوت ربّان الطائرة من أفكاري، مردداً الكلمات المعتادة قبل الإقلاع، أغوص في مقعدي، أغمض عينيّ وأتمتم: «سبحان الذي سخّر لنا هذا وما كنّا له مقرنين...».

المعماريّ الأعظمْ

أطـلَّ فجـأة مـن غياهـب الـذاكرة... فـي حـين انمحـت وجـوه كثيـرة عرفتهـا قبلـه وبعـده، بكامـل تفاصـيله... جسـده الناحـل الطويـل... نظّارتـه الداكنـة... شـاربه الأشـقر الكـثّ والابتسـامة الخفيفـة الدائمـة علـى شـفتيه، كـأنّي قـد رأيتـه للتـوّ ولـيس قبـل خمسـة عشـر عامـاً... أسـتاذنا الوقـور فـي كليّـة الهندسـة المعماريّة...

عـاد صـوته ليـرنّ فـي أذنـي، بلغتـه الإنكليزيّـة المطعّمـة باللكنـة الروسـيّة المميّـزة، لـم يُجِـد العربيّـة وبعضـنا لـم يكـن يُجيـدُ الانكليزيّـة ولكـنّ ذلـك لـم يشـكّل عائقـاً فـي تواصـله معنـا... لأنـه كـان بارعـاً فـي التعبيـر بطـرق مختلفـة، أحبّهـا ايماءاتـه... وأهمّهـا قلمـه الرصـاص السـحري الـذي ينسـاب فـوق صـفحات دفتر جيبه الصغير... ليوصل لنا عبرهما ما يريد، وما كان يريده دائماً هو أن يعلّمنا كيف «نرى».

كنـا نتحلّـق حولـه هاربـاً بنـا مـن قاعـات الـدرس المغلقـة إلـى حـدائق الجامعـة وشـوارع المدينـة، تحـت المطـر... فـي الشـمس المحرقـة... سـيّان، المهـم إلـى الطبيعـة... المعلـم الأساسـي –برأيـه– للعمـارة بتصاميمها الأكمل.

ولا أنسـى أبـداً مـرّة أمضـى فيهـا أكثـر مـن سـاعة وهـو مسـتغرق تمامـاً فـي شـرح روعـة تـدرّج الألـوان فـي انعكـاس أشـعّة الشـمس علـى بقعـة وقـود صـغيرة علـى الإسـفلت، بقعـة وقـود بحجـم الكـف لا تسـتوقف أحداً، كان يحلل جمالية ألوانها كما تُشرح أبعاد لوحات كبار الفنانين.

مذهلـة كانـت طريقتـه فـي كسـر حـواجز العقـل وتحريضـه علـى الانطـلاق، مؤمنـاً أن العمـارة –بالدرجـة الأولـى– أسـلوب تفكيـر ومـنهج حيـاة... أراد أن يعلّمنـا «كيـف نـرى» هـذا «الكـون الأنيـق» الـذي أبدعـه المعمـاريّ الأعظـم، «الكـون الأنيـق» كمـا وصـفه برايـان غـرين عـالم الفيزيـاء الشـهير فـي كتابـه (نظريـة الأوتـار المشـدودة)، أنيـق فـي ظـاهره وباطنـه، مـا نـراه بأعيننـا ومـا نشـاهده تحـت المجهـر ومـا نستشـعره بحواسـنا، أصـغوا معـي... ألا تسـمعون «موسـيقى الأفـلاك» كمـا سـمعها فيثـاغورث؟ وهـل العمارة إلا «الموسيقا المتجمّدة» «Frozen Music» كما وصفها غوتة؟

ومـا أهـمّ أن يمتلـك الإنسـان عمومـاً والمعمـاريّ خصوصـاً ذلـك الفكـر الموسـوعيّ البعيـد المـدى، أن يرتقـي إلـى سـماءٍ يـرى منهـا الصـورة مكتملـة، هـذا السـهل الممتنـع، أن نخـرج مـن مشـاكلنا الصـغيرة وانشغالاتنا الأرضية لنتلمّس حجمنا بالنسبة للكلّ وانعدام زمننا على عقارب ساعة الكون.

وهل يتأتى ذلك إلا بالمعرفة ؟ ... «فنحن نرى بقدر ما نعرف»...

يقـول مولانـا جـلال الـدين الرومـي «لـو اشـتعل العـالم كلّـه بـالنور لـم يـرَ أحـد ذلـك النـور إذا لـم يكـن فـي عينيه نور».

المعرفـة... علّنـا «نسـمع بـأذن الـروح» و«نـرى الأشـياء كمـا هـي»، لنتبـيّن خلـف التيـار المنسـاب بـلا انقطـاع وحـدة لا تُفصـم عراهـا، لأنّ –والقـول لكزنتنـزاكيس– «أدنـى أنـواع الحشـرات وأصـغر الأفكـار هـي معسكر كامل للإله».

الحياة حلوة . . . «بس نفهمها»

«كل ما تدّخره ليس لك»... مثلٌ حكيم...

فما نخبّئه لا نستفيد منه اليوم، ومَن يعلم... قد لا نحيا لنستفيد منه غداً.

وإذا عشنا للغد، فقد لانكون قادرين على الاستفادة منه حقّاً، لأنّ هيولى الحياة المتغيّرة في كل لحظة ليس لديها ثوابت، والصورة تتبدل مع تغيّر عناصرها المتحوّلة أبداً.

لاتراهن على غدٍ لاتملكه، وربما لايأتي، أما قرأت قول الخيّام في رباعياته:

غدٌ بظَهْرِ الغَيبِ واليومُ لي وَكَمْ يخيبُ الظّنُّ في المقبلِ

واسمع نصيحة المجرّب في أبياته، إذ يقول:

لا تَشْغَلِ البالَ بماضِي الزّمانْ ولا بــآتي العَيْشِ قَبْلَ الأوانْ

واغنمْ من الحَاضِرِ لذّاتِـــهِ فليس في طَبْعِ الليالي الأمانْ

ما نملكه حقاً هو ما نستخدمه، وقد يتضاعف حين نشارك الآخرين به... كالفرح.

وفي سعيهم لتخزين السراب، يضيّع السذّج الثروات الحقيقية التي لا تعوّض أبداً، المبادئ... الشباب... الصحّة... اللحظات الثمينة مع من نحب... الأصدقاء، بل وقد يقايضونها بما لا يمنح السكينة ولا يصنع السعادة، وهل يأخذ الموتى معهم شيئاً حين يرحلون؟.

في جنازة رجل ميسور معروف في مدينتي، أُبقيت يده المفتوحة خارج النعش حسب وصيّته، رسالة يقول بها –رحمه الله– إن من يرحل لا يأخذ معه شيئاً مما امتلكه في الدنيا... كثيراً كان أو قليلاً.

فقيرٌ هنديٌّ مستلقٍ بكسل في ظلّ شجرة، عصر يوم حارّ، مرّ به من يحثّه أن يعمل وأن يسعى كل دقيقة لجني مزيد من المال، سأله الهنديّ بهدوء: «لماذا؟» فأجاب العابر: «ليتّسع مصدر رزقك الذي تقتات منه»، سأل الهنديّ مرة أخرى «لماذا؟»، فأجابه الناصح: «لتكبر تجارتك ويكون لديك المال الوفير»، فأصرّ صاحبنا سائلاً: «لماذا؟» فردّ الرجل بنفاد صبر: «لتمتلك الأطيان والأملاك وتعجّ قصورك بالخدم والحشم»، وتابع الهنديّ وهو مازال مستلقياً بلا مبالاة تكرار سؤال «لماذا؟» والرجل يشرح ويشرح، ليصل في نهاية المطاف إلى القول: «لأنك بعد سنين من الكدّ والشقاء قد تمتلك ثروة كبيرة، فترتاح وتستلقي مطمئنّ البال».

انفرجت أسارير الوجه الأسمر عن ابتسامة واسعة، والتمعت العينان نصف المغمضتين ببريق الرضا، وقال الهنديّ حاسماً الحوار لصالحه قبل أن يعاود الاستلقاء في ظل شجرته الوارفة: «لماذا أتعب إذاً؟ أليس هذا بالضبط ما أقوم به الآن؟».

وبلغة الشعر:

لا توحشِ النفسَ بخوفِ الظنونْ واغنَمْ من الحاضرِ أَمْنَ اليقينْ

فقَدْ تَسَاوى في الثَرى رَاحلٌ غداً، وماضٍ من ألوفِ السّنينْ

أجل فـ«السعادة هي اللحظة»... كالحلمْ تمضي الأيام في حياة عبور، ولا نستوعب –حتى برحيل من عرفناهم شعلة حياة وأحلام –أننا أيضاً راحلون، ألم يقل السيد المسيح عليه السلام: «دعوا الموتى يدفنون موتاهم»...

ترى... ما دمنا عابرين للمكان ومؤقّتين في الزمان... وإذا كان أحد لم يبقَ ولن يبقى، فلماذا الصراعات والحروب والأطماع والتزييف و... و...؟

في حفل غداء – قبل أيام – لاحظتُ أنَّ الضيف الأكبر مقاماً وسنّاً لا يأكل مما يُقدّم له، إلا قليل اختاره، مما لا يسمن ولا يغني من جوع، وعلى طريقتنا العربيّة في الضيافة، ألححتُ عليه أن يتذوّق مزيداً من الأصناف الشهيّة التي عمرت بها المائدة، فأخبرني بمرارة من عرف بعد فوات الأوان: «كنت في شبابي رجلاً يُشار بالبنان إلى قوّته وبأسه»، ابتسم وهو يتذكّر:

«كنت قادراً على أكل جمل كامل كما يقولون»، وبحزن أضاف: «لكنني كنتُ فقيراً، محروماً من كل شيء ونادراً ما نمتُ شبعان، لذلك اندفعتُ أعمل بجنون، سنوات طوالاً حرمتُ نفسي كل متعة، كنتُ آلة جبارة تعمل وتعمل حتى وقفتُ على قدميّ وتربعتُ على ثروة كبيرة»، غصّ متمهّلاً «اليوم أملك المال الكافي لأفعل كل ما أريد، وآكل ما لذّ وطاب»، تنهّد بأسى قبل أن يكمل: «لكن صحّتي، للأسف، لم تعد تسمح بذلك، ومازلتُ يا ابنتي –كما يوم كنت فقيراً– أشتهي كل شيء».

بالمقابل، خالتي «ليلى»، سيّدة «هنيّة»، كما يُقال بالعاميّة، ترى الجانب الأجمل في الأشياء، تستخلص الفرح من كل شيء، رغم أن رحلتها –كما أعرف– لم تكن سهلة في سنواتها الستّين الماضية، مجالستها متعة حقيقية، فلو قدّمتَ لها وردة صغيرة في كوب ماء، لشعّ وجهها الطيّب بسعادة من يجلس في حديقة مزهرة، على ضفّة نهر متدفّق، في فيء شجرة عملاقة، وهي في الحقيقة، لا تنتشي بجمال ما ترى، بل بجمالها الداخلي، لأننا «نرى»، كما نشعر، بقدر ما نعرف، وطوبى لمن كان لقلبه عيون... مثل شيخنا الأكبر ابن عربي الذي رقص منتشياً بوقع قطرات متساقطة من مزراب ماء...

صديق قديم كتب لي ذات يوم، وأنا على مفترق طرق: «لا تبحثي كثيراً، ففي النهاية، ستجدين أن ما تبحثين عنه موجود في داخلك، جنّتنا الأرضية داخلنا، ولكننا في سعينا المحموم لا نرى الأقرب، وعيوننا دائماً معلّقة بالمدى البعيد».

ورغم أن كل ما قلته هنا يبدو مألوفاً، وربما بديهياً، ولكن نَدَرَ مَن اتّعظ، فالإغراءات تعمي البصر والقلب أحياناً... وقليلون يتوقفون عن الركض المجنون بين الفينة والفينة ليسألوا أنفسهم؟ «لماذا نركض؟»، الحياة فنٌّ تُجيده قلّة محظوظة، تعرف كيف تستمتع بما هو جميل فيها، وما أجمل كلّ ما فيها حين «نعرف كيف نراه»، ببساطة، كما تقول أغنية فريد الأطرش «الحياة حلوة بس نفهمها».

اعتصرْ السعادة من كل دقيقة، استكشفْ مواطن الجمال حتى في ما يبدو بعيداً عنه، «فنحن باقون هنا لمدة محدودة».

وكلمتان ضعهما «حلقة في أذنك»... «دنيا فانية».

وأما الزبد فيذهب جُفاءً. . .

لا يرددون وراء حمورابي «العين بالعين والسنّ بالسنّ»، يتعاملون مع المحيط بمعاييرهم لا بمعاييره، وفي القرآن الكريم: «كلّ يعمل على شاكلته».

لا تخدعنك صلابتهم وملامحهم القوية، فهم أيضاً يتألمّون وربما أكثر من غيرهم، لكنهم يقهرون آلامهم، ويروّضون ردود أفعالهم، لا يدعون المصاعب تهزمهم، ولا يتخلّون عن مبادئهم، يمرّون حتماً بلحظات صعبة، وقد يضعفون أحيانا، لكنهم غالباً ما يموتون شامخين كأشجار الصفصاف... وتبقى أعمالهم الكبيرة «أما الزبد فيذهب جُفاءً».

أنا لا أتكلّم عن أنبياء أو قدّيسين، إنما عن بشر عاديين مثلنا، لم أعرف منهم الكثيرين للأسف... لكن القليلين الذين عرفتهم «كباراً» أثّروا بي كثيراً... فالحياة قربهم تعلّمك كيف تهذّب انفعالاتك وتسمو برؤيتك، والتعامل معهم يُشعرك بالأمان، فكبير النفس يحتوي الآخرين، ويقدّر عطاءاتهم، لا يخشى أن تطول قاماتهم بجوار قامته العملاقة، ولا يستغلّ لحظات ضعفهم، ولا يتخلّى عنهم عند الحاجة، ويسامح مهما أوذي فلا ينحدر أبداً إلى انتقام.

«الكبير» يسمو... والله قد ميّز البشر بحسب سموّ أرواحهم فوق الهياكل العظمية المكسوّة باللحم... خلقهم درجات، يعلو من يعلو فوق التفاصيل ويترفّع عن السفاسف:

وتعظم في عين الصغير وتصغر في عين العظيم العظائم

يتخطّى العوائق ولا تشغله الفواني، ولسان حاله يردّد مع المتنبي: «أنام ملء جفوني عن شواردها».

«الكبير» يرى إلى مدى أبعد، إذ يفهم ذاته ويعرف ماذا يريد، و«من عرف نفسه عرف ربّه».. فهو يميّز الحقّ من الباطل... لا يكذب ولا يخدع ضميره، ولا يفعل سرّاً ما يخجله علناً، ولا تسلبه توازنه الإغراءات، يشحن نفسه إيماناً بها، لأن الإنسان لا يحصل على ما يستحقّ بل على ما يعتقد أنّه يستحقّ.

و«الكبير» غنيٌّ، والغنى غنى النفس، لا يأبه بالقشور، «يرى المعنى وليس المبنى»، يبحث دائماً عن غذاء الروح، مُدركاً –والقول لمولانا جلال الدين الرومي– أن «غذاء الفرس ليس غذاءً للفارس». يزداد تواضعاً كلما ازداد علماً ورفعة :

ملأى السنابل تنحني بتواضع والفارغات رؤوسهن شوامخ

يهب دون مقابل، بل وينسى ما وهب، ولا ينتظر جزاءً ولا شكورا:

ازرع جميلاً ولو في غير فلا يضيع جميلٌ حيثما زُرعا

ولأن مال الدنيا يبقى في الدنيا، فهو لا يبيع نفسه به، موقناً أنّه رابح مهما فدحت خسائره ما دام لا يُقامر بمبادئه ولا قيمه، وكم يكشف المال عيوباً غطّاها الزمن، وكم كبار على إغرائه صغروا، وكم من أثرياء لا يملكون إلا دراهمهم.

ورغم أنَّ من حوله لا يفهمونه عادةً إلا متأخرين، لكنه يحسم خياراته بحسب رؤاه، لأن الإصابة ليست دائماً في جانب الإجماع فالأغلبية ليست حجة قاطعة، «لا يستوحش درباً قلَّ سالكوه» ولا يؤمن بفلسفة «عصفور في اليد خير من عشرة على الشجرة»، فالمهم هو «العصفور» الذي يريد، وسيّان إن طارتْ بقية العصافير أو بقيتْ.

كيف نكون «كباراً»؟ نحن «جينات» تخلق معنا وبعضنا تربية ووعي و... قرار وتدريب.

أن تكون «كبيراً»، أمر لا علاقة له بمال أو بمعطيات خارجية، هو سحر كامن في النفس يُلهمك القرار الأفضل في اللحظة المناسبة، وقد يكون الفرق بين الصغير والكبير لحظات قليلة نقضيها مع من يحتاجوننا، أو دريهمات ننفقها لإسعاد من لا نعرف، أو كلمات طيّبة نجبر بها خواطر من لا غاية لنا في إرضائهم، أو اختيار كلمات ألطف للتعبير عن ذات المعنى كي لا نجرح من يسمعنا، أو لمسة حانية نمنحها ونحن بأمس الحاجة إلى مثلها.

لكي تبقى «كبيراً» وقويّاً، كن حكيماً في خياراتك، فكلّ خيار مهما صغر يرجح كفّة الميزان دون الأخرى، هي شعرة تفصل القاع عن القمّة، وتُحيل الأبيض أسود، ولمزيد من الاقتناع، اقرأ معي هذه الأبيات للإمام شرف الدين إسماعيل بن المقّري من القرن العاشر الهجري، يمجّد فيها عظمة «الكبار»، ثم اقرأ في الأبيات العبقرية ذاتها، كلّ بيت من آخره إلى أوله مقلوباً، عن وضاعة «الصغار»:

طلبوا الذي نالوا فما مُنعوا رُفعت فما حُطّت لهم رُتبُ

وُهبوا وما منَّت لهم خلق سَلِموا فما أودى بهم عطبُ

جلبوا الذي يرضى فما كسدوا حُمدت لهم شيمٌ وما كسبوا

غضبوا وما ساءت لهم خلقٌ ستروا فما هُتكت لهم حجب

ذهبوا وما يمضي لهم أثرُ رحموا فما حلت بهم نوب

حسب لهم تركوا فما سقطوا كَلِمٌ لهم صدقت فما كذبوا

عصب بهم نصرت فما خذلوا شرفوا فلا يدنو لهم حسبُ

المرحومون . . . إلكترونياً

أخافُ عالم الانترنت، يرهبني محيطه الواسع الغامض، وتتبدَّى لي كنوزه الثمينة مستلقية بين أنياب وحوش خرافيّة، وحينما أجرؤ على التسلل إليه، يبهرني ازدحامه وسرعته وذكاؤه، فأراني «أليس في بلاد العجائب»، وأراه سيفاً ذا حدين «مفيد إذا أُحسن استخدامه»، تمتزج الحقيقة فيه بالخيال، وتُترجَم أدق تفاصيل واقعنا المعاش الحيّ إلى شيفرة مدوّنة وذبذبات، لتضمحلّ الحدود تدريجياً بينه وبين عالمٍ افتراضيّ بات يوازيه بطريقة يصعب استيعابها.

في جولتي في بعض مواقعه هذا الصباح، قرأتُ خبراً طريفاً «يبشّر» السادة مستخدمي الشبكة الإلكترونية أنّه صار بإمكانهم الآن أن يحجزوا مدافن خاصة بهم في... «المقبرة الافتراضية».

«مقبرة إلكترونية»؟ كان ينقصنا أن يبهت أيضاً الخطّ الفاصل بين المدفن الإلكتروني والمدفن العاديّ، مضيفاً مزيداً من التشويش على غموض قديم لتصنيف الأحياء والأموات، أقدم من قول البحتري:

ليس من مات فاستراح بميتٍ إنما الميت ميّت الأحياء

وإذا كنّا قد ألفنا –سيّما في السنوات الأخيرة– شراء القبور وحتى ارتفاع أسعارها، فللمرة الأولى نسمع أن مدفناً إلكترونياً بات يقدّم خدماته للسّادة المهتمين بالمكان الذي سيدفنون فيه «افتراضياً»، مع أن ندرة تملك في الواقع مطلق الحريّة في اختيار المكان الذي تحيا فيه، أصلاً.

وعلى ذمّة الـCNN، يزيد عدد «الأموات» المسجّلين في هذه «المقبرة الافتراضية» –حتى اليوم– على ٢٧٠٠ شخص، يتلقّون يومياً أكثر من ١٠٠ ألف زيارة، وتروي المدوّنات الخاصة بكل منهم ظروف حياته وموته، ومقتطفات مما كتبه في دفاتره، وعبر منتديات هذا الموقع الإلكتروني يتم تبادل التعليقات بين أصدقاء الراحلين، وطرح مواقفهم الشخصية من الحياة والموت.

في نهاية الخبر المنشور يقول الدكتور بوب طومسون، أستاذ الإعلام المرئيّ والتراث الشعبيّ في جامعة سيراكوز، «هذا الموقع يسمح لك بالنظر إلى الجانب المظلم من الحياة.. هنا نرى الأشياء التي نحاول ألا نفكّر فيها... على صفحاته نتبيّن أننا نرقص على حافة الحياة وأن الموت قادر على اختطافنا في أيّ لحظة».

فكرة سبقه إليها –بلغةٍ أجمل ـ كعب بن زهير قبل أربعة عشر قرناً إذ قال:

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته يوماً على آلة حدباء محمول

وللمستعجلين الذين يهمّهم أن يعيشوا تجربة الموت قبل أوانه، أدعوهم لزيارة فندق «الضريح» في بلدة «ليشيو» في الصين، حيث تستقبلهم صاحبة الفندق سيّدة الأعمال الصينية «حياو ميجي» والتي حرصتْ أن يبدو المبنى من الخارج على شكل ضريح صينيّ تقليديّ، أما من الداخل فجميع الأثاثات والديكورات توحي بأجواء القبور لدرجة أنّ كلّ غرفة نوم تحوي سريراً مصمماً على شكل نعش...يا للرومانسية!.

الألمان أيضاً مهتمّون بتبديد الغموض المحيط بالوفاة لدى مواطنيهم، لذلك افتتحوا قناة تلفزيونيّة للموت، متخصّصة بتقديم برامج عن الموت والمقابر وإجراءات الدفن والمدافن المميزة وتُعدّ قناة «ايتوس تي في» والاسم مأخوذ من آلهة الزوال الإغريقية «ايوس»، الأولى ليس فقط على مستوى ألمانيا وإنما على مستوى العالم أيضاً.

ولمن يرغب في مشاهدة حبيب أو قريب متوفى، فالمحطّة ستوفّر خدمات خاصة ببثّ أفلام قصيرة تعرض صوراً ولقطات للميت مقابل رسوم ماديّة، وكذلك برامج حول تفاصيل الجنائز وفلسفة الموت والطقوس المصاحبة له في الثّقافات والحضارات المختلفة.

والطريف –أو المرعب– أن القناة تلقّت طلبات من أشخاص ألمان عبّروا عن رغبتهم في مشاهدة إعلان وفاتهم بالقناة وهم على قيد الحياة.

هل هي درجة عالية من النضج والواقعيّة أن يفكّر الإنسان كيف وأين سيُوارى الثرى ويخطّط لمكان قبره وهو حيّ؟ وما أهميّة المكان الذي تُدفن فيه أجسادنا بعد أن نغادردها؟.

الفكرة –شخصياً– تخيفني ولا أودّ التعمق بها، وأفضّل بالتأكيد، ما دمتُ على قيد الحياة، البحث –سواء على الانترنت أم على أرض الواقع– عن الأماكن الخلّابة والساحرة التي خلقها الله في كل مكان داخلنا وخارجنا، ليس لأُدفن فيها... بل لأستمتع بجمالها.

نصيحتي... «اعملْ لآخرتك كأنّك تموت غداً واعملْ لدنياك كأنّك تعيش أبداً»، كما قال الإمام علي رضي الله عنه، عشْ بكل ما استطعتْ من قوة... اضحكْ من كل قلبك... تضحك لك الدنيا... وابكِ من كلّ قلبك... حتى تغسل آخر قطرة حزن عالقة، وحينما تفكّر أن تستكشف أماكن جديدة على الانترنت تجنّبْ المقابر الافتراضية، وتذكّر أن رحلتنا القصيرة في الحياة لا تكاد تكفي لزيارة جزء يسير من الأمكنة الجميلة التي نثرَتْها لمسة الخالق فوق أرض المعمورة.

أما لمن يحبّ «النكد» منكم، ويرغب في زيارة «المرحومين إلكترونياً»، فالموقع الإلكتروني المذكور بدايةً يحمل اسم

«My Death Space»، والزيارة ليست على مسؤوليتي...

الموسيقى. . . لغة الآلهة

التقطتُ سمّاعة الهاتف بعد إلحاح رنينه الطويل، وكأنّ إزعاجات الهاتف الثابت لم تكن كافية حتى اخترعوا المحمول أيضا ليقتحم خصوصيّاتنا دون استئذان أينما كنّا، أفكّر باستياء «أصبح الجوّال كالموت... يبلغكم ولو كنتم في بروج مشيدة»..

أردّ على مضض من قلب غيمة سأم وإرهاق تخنقني منذ أيام، لكنّ صوت صديق عزيز يأتيني ليبرّئ ساحة الهاتف الجوال... هذه المرة –على الأقل– يحمل إليّ موجة فرح...

في الوقت المناسب... استراحة محارب ومكافأة أستحقّها... كيف لا وهو شاعر يتقن مهارة التعامل مع الكلمات واستخراج أقصى طاقاتها ليحوّلها شهباً توصل المعاني بذكاء واختصار، وترياقاً يداوي سحره أبعد الخلايا...

تفاعلات كيميائيّة؟ ربما... لقاء أرواح؟ جائز... لكن الأكيد أن هناك من ينتهي حديثنا معهم بعد دقائق، بل وأحياناً قبل أن يبدأ... وهناك من يسترسل حوارنا معهم حتى نتمنّاه أن لا ينتهي، وفيه تتوالد الأبعاد من أبعاد، يستنبط أرقى ما فينا ليفرشه بسلاسة بين الحروف، فيتحوّل الكلام رحلة تطير بنا من أفق إلى أفق وتغوص بنا من عمق إلى آخر حتى يغيب إحساسنا بالزمن.

ولأنهم مواطنون مثلنا من كوكب يحظى سكانه بنعمة أو نقمة قرون استشعار فائقة الحساسية، فإنّهم لا يرهقوننا بطلب تفسير أو شرح، بل يقرؤوننا حتّى من نبرات صوتنا... لهذا أنهى مكالمته بقوله: «عمّدي نفسك المتعبة بفيض من الموسيقى»...

أُقفلُ الخط... ها أنذا أحطّ ثانية على الأرض، تأمّلتُ بأسى فوضى مكتبي وأوراقه المبعثرة التي تنتظرني، الموسيقى؟.. سهل أن يتفلسف من هو ليس مجبراً على التعامل مع هذا كله، ولكن... لم لا أجرب؟

أقفلتُ باب الغرفة... قلبتُ ساعة المكتب الصغيرة رأساً على عقب كي أنأى عن ملاحقة عقاربها لي، واتّبعتُ النصيحة...

انسابتْ الموسيقى الهادئة تملأ فراغ الغرفة... ثم أخذتْ تتسلل إليّ... وقبل أن يمرّ وقت طويل... كانت صمامات الضغط قد فُتحت داخلي، وبدأ قلقي وتوتري يتلاشيان رويداً رويداً مع الأنغام الرقيقة التي طغتْ على ضجيجي الداخلي وراحتْ تحلّ تشابك الأفكار المزدحمة داخل عقلي المرهق.

أغرقُ داخل الكرسي... أدفع ظهري للوراء، أُلقي بقدميّ فوق المكتب... نفس عميق... أدعني أسترخي... وأتأمّل في أسرار الموسيقى... الكون الذي يوحّد المخلوقات... عجيب كيف تتخطّى الزمان والمكان ليطال سحرها كل الكائنات... تخاطب أرقى ما فيهم وتصل بينهم بلغة عالمية تترفع عن اختلاف اللغات... وتستوعب كل المناسبات... الأفراح والأحزان، السلم والحرب، صخب أماكن اللهو وخشوع دور العبادة، أما كان الفارابي بألحانه يُضحك الناس ويُبكيهم في لحظات تليها؟ ومن منّا لم ينم سعيداً على تهليلة رقيقة من أم حنون؟، غذاء أرواح ليس للإنسان فحسب، بل يأسر حتى الحيوان، ألا تستدرج نغمات المزمار الهنديّ الأفعى من وكرها... وتراقص الدببة في السيرك؟.

منذ وقت مبكر استشعر أجدادنا الحكماء أهميّة الموسيقى، وأدلى علماؤهم كالكندي والرازي بدلوهم في هذا المجال وكتب ابن سينا مقالته المشهورة «خير تمارين العافية الغناء»، ولم يكن غريباً بعد ذلك أن يستخدم إخوان الصفا الموسيقى علاجاً في المارستانات لتخفيف الآلام وشفاء الأمراض، وأن يظلّ هذا جزءاً من العلاج في البيمارستانات الإسلامية حتى العهود المتأخرة .

في العقد الفريد يقول ابن عبد ربه «زعم أهل الطب أن الصوّت الحسن يسري في الجسم ويجري في العروق، فيصفو الدم ويرتاح له القلب، وتهشّ له النفس، وتهتزّ الجوارح وتخفّ الحركات»، وتصوّروا أهمية فهمه العميق للتأثير الايجابي للموسيقى، هو الذي لم يُبْتل مثلنا بالتلوّث الصوتي الفظيع، إذ لم تكن الضوضاء سمة عصره كما هي سمة عصرنا، والتي يزداد اليقين كل يوم بمخاطرها الصحيّة وتأثيراتها السلبيّة على نفسياتنا وأبداننا، بل حتّى على النباتات التي يتوقّف نموّ بعضها وربما تذبل حتى تموت بسبب الضجيج .

أصوات تخدش السمع وأصوات تفتح مزلاج القلب «ليعشق قبل العين أحياناً»، أصوات تُمرض وأصوات تشفي، كيف؟... سأخبركم...

علمياً، تؤثّر الذبذبات الموسيقيّة على الجهاز العصبيّ بما يشبه التخدير الطبّي إذ تحرّض الجسم على إفراز الأندروفينات التي تشبه المورفين ومادة الميلاتونين التي تسبّب حالة الاسترخاء وتخفّض من هرمون الاكتئاب (كورتيزول) كما تنشّط المضادات الطبيعية التي تدعم الجهاز المناعي، وبما أنّ لكل عضو من أعضائنا موسيقى-لا نسمعها لأنها متناهية الصغر- تختلّ عند حدوث مرض أو تغيّر في المزاج، فإن ترددات الموسيقى تأتي -سبحان الله- لتعدّل هذا الاختلال وتعيدها لحالتها السويّة.

وبحسب طب «الايوروفيدا» الهنديّ، هناك ثمانية مراكز موزّعة على طول أجسامنا تتولى تنسيق تدفّق الطاقة فيها تدعى كل منها «شاكرا»، ولكل منها ذبذبة معيّنة ذات علاقة بالسلّم الموسيقي، تختلّ بالمرض والضغوط ويُعيدها العلاج بالموسيقى إلى حالتها التردّدية الطبيعية مولّداً طاقة نظيفة ومفجّراً الطاقات المكبوتة.

لذلك -وإلى جانب العلاج بالطاقة أو الألوان أو الإبر الصينيّة- يأتي العلاج بالموسيقى كأحد أشكال الطب المكمّل أو حتى البديل، ولأنّه علاج يسير رخيص، ليس له أي مضاعفات، يُمارَس في كل زمان وكل مكان، فقد أثار اهتمام الغرب منذ عام ١٨٩٦م، وتمنح جامعة ميتشيغن في أميركا منذ عام ١٩٤٤م درجة علميّة في هذا المجال الذي تُدرّسه كعلم مستقل، يستخدم الموجات الصوتيّة لخفض ضغط الدم المرتفع ومعالجة الربو والصداع النصفيّ والصرع والفصام والزهايمر واضطرابات التنفس والنوم والأرق، ولبعض إعاقات النمو والتعلّم وزيادة مهارات التواصل خاصة لذوي الاحتياجات الخاصة، علاج أثبت فعّاليته في رفع مستوى الذكاء والتركيز لدى الاطفال وتخفيف العنف لديهم ودعم قدرتهم على الاستقلالية والإبداع، سيّما وأن الطفل منذ وجوده في رحم أمّه يصغي إلى الموسيقى والإيقاع المنتظم لضربات قلبها مما يؤثّر في تكوين شخصيّته وذوقه العام.

والموسيقى كذلك وصفة أكيدة لتخفيف الآلام ومعالجة الاكتئاب بل وحتى في علاج السمنة!! إذ يُشعرنا الإيقاع بذاتنا ويدلّنا على ما نحتاج إليه مما يحدّ من ظاهرة «الجوع العصبي» ويحدّد العلاقة

بـين الجـوع والشـبع، وتصـوّروا أن سـماع بضـع سـاعات مـن الموسـيقى الكلاسـيكية يوميـاً قـد يُسـهم فـي إنقاص أوزاننا... ما أمتعها من حمية!.

اذاً ليسـت للترفيـه فحسـب بـل للعـلاج أيضـا، وربمـا نـرى الصـيدليّات قريبـاً تبيـع –إلـى جانـب العقـاقير والأدويـة– تسـجيلات موسـيقيّة تسـاهم فـي عـلاج الأمـراض وإعـادة التـوازن، وحتـى ذلـك الحـين... سـأداوي نفسـي بنفسـي... «بفـيض مـن الموسـيقى» كمـا قـال صـديقي، أفكّـر وقـد غمرنـي الرضـا... كـان علـى حق، هناك خواء لا يملؤه إلا رقيّ الموسيقى أو رقّة الشعر أو غنى كتاب...

فلا عجب بعد ذلك أن يقول نيتشه: «لولا الموسيقى لكانت الحياة ضرباً من الخطأ».

«خلطة حرّية»

مـرتبط شـعره فـي ذهنـي بكـلّ مـا هـو جميـل ورقيـق، «أعمالـه الكاملـة » كانـت دائمـاً رفيقـة أسـفاري، وبـين سـطوره طالمـا وجـدت العـالم الـذي أحـبّ واللغـة الدافئـة والألـوان التـي ضـاع الكثيـر منهـا فـي إيقـاع حياتنـا المجنونـة، وحتَّـى اليـوم مـا زالـت قصـائده التـي أحفـظُ الكثيـر منهـا عـن ظهـر قلـب... فضـاء تحلـق روحي فيه فتنفض عنها غبار الزمن.

لـذلك حرصـتُ أن أجـد لنفسـي مكانـاً فـي أمسـية افتتـاح نـدوة تكريمـه قبـل أيّـام فـي دمشـق... وتتبعـتُ كل كلمة قيلتْ باهتمام حقيقي:

«مـن منّـا لـم يسـكنه نـزار قبـاني؟ لـم يغـزُ خلايـاه بسـحر مـا كتـب، ولـم ينسـكب مـع شـلّال دمـه عطـراً وشـعراً وتوقـاً وضـفائر نـور تعطّـر قلبـاً وتقطّـره حبـاً؟ ومـن منّـا لـم يرافقـه فـي رحلتـه الطويلـة المتألقـة المضنية الممتعة المتأنّقة بين كثافة الجسد وشفافيّة العاطفة؟».

ويسـتحقّ عبقـريّ الشـعر الحـديث أن تكرّمـه الشـام «شـامة الـدنيا ووردتهـا»، كمـا وصـفها بلغتـه البسيطة المبدعة، وهو العاشق الدمشقيّ بامتياز:

دمشق دمشق يـا شعراً
على حدقات أعيننا كتبناه

وهـل اسـتطاع يومـاً أن يكتـب عنهـا دون أن «يعـربش الياسـمين علـى أصـابعه» وأن يـذكر أسـمها أبـداً إلا «واكـتظّ فمـه بعصـير المشـمش والرمـان والتـوت والسـفرجل»؟، دمشـق التـي كـان «اصـطدامه بالجمال فيها قدراً يومياً»، دمشق الفلّ :

الفلُّ يبدأ من دمشقَ بياضه وبعطرِها تتطيبُ الأطيابُ
والماءُ يبدأ من دمشق فحيثما أسندت رأسك جدولٌ ينسابُ

وفـي «محـاورة بـين أحيـاء يحـاولون الكـلام وراحـل مـازال صـوته عالِيـاً» كمـا عبّـرت إحـدى الجرائـد، تـوالى علـى المنبـر عـدد مـن الشـعراء والكتـاب الـذين اجتمعـوا لتكـريم شـاعر أسـطورة جعـل مـن الشـعر «خبزاً ساخناً وثمراً على الأشجار».

بوّابـة مـن بوّابـات دمشـق هـو، دعـاه شـاعر «بإمـام العشـق»، بينمـا خاطبـه آخـر قـائلا: «لسـت الحـيّ ولسـت الميّـت»، وتسـاءلت شـاعرة «هـل الحسـن كـل الحسـن إلا العبقريّـة؟ العبقريّـة التـي لا فضـل لصـاحبها بهـا لأنهـا كـالعطر فـي الزهـر»، ولكننـي لا أجـد وصـفاً لـه أجمـل مـن وصـفه لنفسـه «بخلطـة حرّية».

نـزار – دون شـك – كـان الأصـدق والأكثـر جـرأة فـي التعبيـر عـن مكنوناتنـا نحـن النسـاء، تمـرّد علـى كـل المسـلّمات، وثـار بشـجاعة علـى قـوانين القبيلـة وأعرافهـا الجـائرة وسـلبيات واقعنـا ومشـاكلنا التـي لا نجرؤ حتى على تسميتها:

أفتحُ صندوق أبي
فلا أرى
إلا دراويش ومولويّهْ
وقصّة الزير على حصانه
وعاطلون يشربون القهوة التركيّهْ
أزحفُ إليك غاضباً
وأقتلُ المعلّقات العشر والألفيّهْ
وأقتلُ الكهوف والدفوف
والأضرحة الغبيّهْ

والشاعر القومي الفخور بانتمائه، يحمل –أينما سافر– «صرّته» البيتية الحميمة... يتنشّقها فينشقّ الأفق أمامه عن ألف عطاء وتخيّل :

وخبّأ في حقائبه
صباح بلاده الأخضر
وأنجمها وأنهرها
وكل شقيقها الأحمر
وخبّأ في ملابسه
طرابيناً من النعناع والزعتر
وليلكة دمشقيّهْ

في توصيات الندوة، دعا الحضور إلى تحويل بيت نزار قباني متحفاً يضمّ تراثه، بيت طفولته الدمشقيّ الذي ما انفكّ يذكره بحنان في مختلف مواضع شعره، حتى جعله بيتنا جميعاً، بيت «أم المعتز» الذي يصفه تارة بقارورة العطر «وإذا سقطتُ أسقط على حضن وردة...»، وأخرى يشبهه وبيوت دمشق القديمة بالجنّة «والذين سكنوا دمشق، وتغلغلوا في حاراتها وزواريبها الضيّقة، يعرفون كيف تفتح لهم الجنة ذراعيها من حيث لا ينتظرون».

الندوة انتهت... ولم تفِ حقّه ولن تفعل عشرات الندوات، لكنها كانت «بعضاً من نزار، أريج من الشعر سيبقى عطراً يضمّخ الكون كله بماء دمشق، بعذوبة الشام، بعطرها الضوّاع الفوّاح».

خرجتُ منها سارحة في حالٍ من التأمّل في رحيل نزار، أيّ مقاومة للعدم هذه؟، وأيّ عدمٍ حين تنداح كلمات الشاعر الراحل وصوره على ألسنة الأحياء؟ إنّه خلودٌ حقّ... خلود لغة لبستْ إهاب الجمال متحرّرة من الزمان والمكان، و«رسّام الكلمات» سيبقى أبداً خالداً في خواطرنا وخواطر من يأتون بعدنا، «فالضوء» –كما يقول كزنتزاكيس– «يبدأ من نجمة ثم يصبّ في العتمة الخالدة ويسير في مسيرة أبديّة... فالنجمة تموت لكن الضوء لا يموت».

وحيُ صور...

علاج أم عقاب؟

كان طبيعّياً أن تلتهب حنجرتي وأسقط طريحة الفراش عقب إرهاق عدّة سفرات متلاحقة في الأسابيع الأخيرة في مهمّات طغى عليها التواصل والحوار...

وبعد أن عاينني الطبيب... زمّ شفتيه... وقطّب حاجبيه باستياء... وألقى محاضرته الطويلة المعتادة عن أضرار المبالغة في العمل وحقّ الجسد والنفس في الراحة، دفع إلي بوصفة طويلة من الأدوية، وطلب منّي الامتناع نهائيّاً عن الكلام عدّة أيّام، ريثما أستعيد صحّتي وتستردّ حنجرتي عافيتها...

ماذا؟... أمتنع عن الكلام؟... يبدوهذا عقاباً وليس علاجاً... ولا أستبعد أن تكون مؤامرة... لأن كثيرين سيسعدهم هذا القرار... فهي فرصة ليرتاحوا من نقاشاتي، وسيسعدهم بالطبع أن يأخذوا إجازة من ملاحظاتي، أما فريق عملي فقد كانت هذه بشارة حقيقية لهم... سيتحرّرون لبضعة أيام من التوجيهات المتلاحقة والركض السريع.

الامتناع عن العمل وواجباته تعذيب لمن لا تكفيه ساعات اليوم الأربع والعشرون لانجاز مهامّه، ولكن ليس أمامي إلا أن أكتم غيظي وأجلس في سريري... أحاول القراءة...

لا بأس... فالصمت حكمة ومنجاة... ثم قد تكون هذه فرصة للتأمّل... كأن أتأمّل مثلاً في نعمة النطق... التي شعرتُ اليوم بقيمتها أكثر من أيّ وقت مضى، وتخيّلت مدى القهر والعذاب اللذين يعانيهما من حُرموا نعمة النطق أو السمع إلى الأبد... فلا لغة العيون ولا لغة الجسد ولا الكتابة ولا التخاطر ولا أيّ أسلوب من أساليب التواصل، تعوّضك عن إخراج ما في داخلك في بضعة حروف يلفظها لسانك... فتُبنى الجسور بينك وبين من حولك... في لحظات...

قد توصل همسة واحدة أحياناً... ما لا تتسع له عشرات الصفحات، وقد تفعل في النفوس فعل السحر، فتبلسم الجراح وتداوي الآلام... أليست «الكلمة الحسنة صدقة»؟... لكنّها في الوقت نفسه سيف ذو حدين، إذا لم يُحسن استخدامه قطع الموصول وخرّب المعمور، وقد قال صلى الله عليه وسلم –وقد أشار إلى لسانه بيده– بما معناه «لولا هذا لدخلت أمّتي كلّها الجنة».

ولم يخطئ كثيراً من اعتبر النطق الخاصّة الأساسية التي تميّز الإنسان عن الحيوان، حين عرّف الانسان «حيواناً ناطقاً»، أليس الكلام مرآة تعكس محتوانا ومفاهيمنا ومشاعرنا فترسم حقيقتنا التي يتعذّر إخفاؤها؟، وقد سأل أرسطو احد مجالسيه عن سبب صمته ثم قال له: «تكلّم كي أراك».

ألا تحمل بصمة صوتنا ملامح شخصيتنا وما يعتمل داخلنا؟، بل وقد تكون جواز مرورنا إلى القلوب، على رأي بشار بن برد:

ياقوم أذني لبعض الحيّ عاشقة والأذن تعشق قبل العين أحيانا

في كلّ محنة يتعلّم المرء جديداً... وقد اكتشفتُ الآن... أنّ من حولي ليسوا مقلّين في الكلام كما اعتقدتُ دائماً، لكن تدفّقي المتواصل لا يترك لهم مجالاً للتكلم، لهذا لا عجب أن استثمروا قرار

الطبيب بكل ما أوتوا من مقدرة، وأجبروني على الإصغاء إليهم طُوال النهار، لكن ذلك لن يفيدهم، وقريباً حين ينتهي الحظر... تنتظرهم أيام عسيرة... سأعوّض ما فاتني في هذه الأيام الثلاثة بالكلام المتواصل... حتى أثناء نومي... ليضحكوا الآن ما شاؤوا... يضحك كثيراً من يضحك أخيراً!.

يغيبُ البصر وليس القلب

تحدّق «غفران» الحلوة فيما لا تراه... عينا الطفلة الجامدتان عالقتان في الفراغ، تعبث أصابعها بخصلات شعرها الأشقر الطويل وهي تنشد بحزن:

إن غاب النور عن عيني	قلبي يغمره ضياء
وبنور الله ورحمتــــه	**نفسي يملؤها رجـــاء**

بصعوبة أتمالك نفسي... وأحبس دمعة تودّ أن تطفر من القلب، إذ مهما بدا العالم مكفهرّاً وحزيناً في هذه اللحظة، فلابد أنّ عالم غفران الصغير الذي غاب عنه النور منذ ولدت أكثر حزناً وظلاماً...

قدّرت أن تغني غفران ترحيباً بنا إذ جئنا نزور مدرسة المكفوفين، مدرسة تحاول فتح كوى النور على العوالم المظلمة وإعادة الأمل والفرح إلى عيون حُرمت نعمة تعرّف الأشكال والألوان التي متّعنا بها الخالق، من خلال تهيئة الحد الممكن من متطلبات ثلاثمائة طالب كفيف في مراحل التعليم الثلاث الأساسية والتعليم الحرفي... قادتنا الجولة إلى عالم لم أكن أتخيّله، جعلتني أتساءل بإعجاب... أيّ طاقة نفسيّة عالية يملكها القائمون على مشروع نبيل كهذا ليتمكنوا من التعايش اليومي مع كل هذا القدر من الألم والحزن؟

أمرّر يدي أتلمّس بانبهار الأحرف النقطيّة النافرة على صفحات الكتب، بينما تشرح مديرة المؤسسة أهمّية الآلة العبقرية الضخمة أمامنا التي تطبع الكتب بلغة بريل (BRAILLE) بسرعة مدهشة، إنها بوّابة المكفوفين إلى العالم، وقد تبرّع محسن كريم بثمنها الباهظ، وتبتسم باعتزاز وهي تضيف إن إحدى بنات المدرسة جاءت الثالثة في ترتيبها على الجمهورية في امتحانات الشهادة الإعداديّة للسنة الفائتة.

لا يمكن إلا أن ينفطر قلبك وأنت تراهم برؤوسهم الشاخصة للأعلى، أصابعهم الصغيرة تتحسس ألواحهم المثقبة لترتيب الأحجار المرقّمة، وفق تعليمات مدرّس الرياضيات، يحاولون حلّ مسائل الحساب متحدّين الإعاقة والعجز .

«مرحباً بالضيوف»، عبارة كتبتها عفراء الكفيفة على شاشة الحاسوب، لم ترها ولن تراها، ذلك أن العلم قدّم برنامجاً متفوقاً يدعى «إبصار» (IBSAR) صُمّم خصيصاً لتعليم منى وإخوانها المحرومين نعمة النظر أن يستخدموا الحاسوب.

محمد يتحسس بيديه القرآن المطبوع بلغة المكفوفين، وينطلق بصوته الشجيّ مردداً آيات من سورة الشعراء، يسكب روحه في الأحرف التي يرتّلها بمحبة وصدق، أداؤه الرائع يبثُّ الخشوع في النفس، وكذلك إصراره على الابتسام بحبّ لدنيا عبست بوجهه منذ تعارفا.

ولان الله قد عوّض المكفوفين بكرمه فشحذ باقي حواسهم، لذلك لم أُفاجأ بالأعمال الرائعة لهؤلاء الرسامين غير العاديين في معرض الأشغال اليدوية، خاصة أن المكفوفين أميل لتعلّم الحرف، لان أبواب العمل الأخرى – كالتدريس مثلاً– مسدودة للأسف في وجوه حتّى المتفوّقين منهم بحكم العادة لا بحكم القوانين، تلمّستُ عقود الخرز الملونة وشعرتُ بصغر معاركنا وضآلة إنجازاتنا نحن المبصرين أمام تفوّق أولئك المقهورين على الطبيعة.

في نهاية الممر... غرفة الموسيقى، يعزف الأستاذ الكفيف ويرافقه الأولاد بالغناء، ورغم أني أحفظها منذ نعومة أظفاري فقد أصغيتُ للأغنية وكأني اسمعها لأول مرة:

بــلاد الــعـرب أوطاني مـن الشـام لـبـغـدان
ومـن نجـــد إلى يمن إلى مـصـر فـتـطـوان

لم يكونوا يغنون بل كانوا يجوبون سماء الوطن العربي كلّه بأجنحتهم، هم المسجونون داخل أقفاص أجسادهم الصغيرة وعوالمهم المطفأة... اختنقتْ التعابير داخل حنجرتي، وبعفويّة، امتدّتْ يدي تربّت على كتف أحد الأطفال قربي في محاولة لإيصال ما جاش في نفسي لحظتها، صحيح أنّه لم يرني ولم يسمعني، لكن أليس للحنان سحر يسمعه الأصم ويراه الكفيف؟.

رنين الجرس يعلن استراحة الظهيرة، فيتدافع الطلاب نحو دفء الشمس في الباحة الخارجية، انتحيتُ جانباً خشية أن أتسبب بسقوط أحد منهم، لكن مضيفتنا أكدتْ أن لا قلق عليهم لأنهم يعرفون طريقهم جيداً، وابتسمتْ وهي تشير إلى جسر بيتوني تدلّى من السقف قائلة إن عمّار –الطالب الكفيف الطويل القامة– ينحني كلما مرّ قرب هذا الجسر وكأنّه يراه، أطرقتُ أفكّر هل سيتمكنون من استشعار طريقهم في الحياة بالحدس والمهارة ذاتها؟، وأن يتبعوا عظماء أسلافهم كبشار بن برد والمعري وطه حسين والبردوني ؟... لم لا؟، ألم يبدع هؤلاء على الرغم من أنّهم لم ينالوا حقّهم من الرعاية والتعليم في مدارس خاصة بالمكفوفين كهذه؟.

ما زال صوت غفران الرقيق يتردّد في أذني، وهي تنشد في ختام أغنيتها المؤثّرة «يغيب البصر وليس القلب»... وكم من مبصرين لا «يعرفون» كيف «يرون»... وقد قال تعالى: «إنها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور».

فلنحمد الله على نعمة البصر مردّدين مع مولانا جلال الدين الرومي «ربِّ أرني الأشياء كما هي»، إذ ليس بالعين وحدها نرى الأشياء...

الوجه الآخر للحضارة

توقّفتُ عند إشارة المرور القريبة من بيتنا، والتفتُّ إلى أمّي بجواري أحادثها، حين لفتَ انتباهي مشهدٌ لم استوعبه في البداية...

كانت هناك؛ على بعد بضعة أمتار، سواد جلبابها وغطاء رأسها المغبرّان يلفّان قامة انحنتْ تحت وطأة السنين وهموم الحياة، تحاول جاهدة تسلّق حاوية المهملات الحديدية الكبيرة، تصارع للوصول إلى قلب الوعاء الأخضر الضخم الممتلئ بالنفايات.

راقبتها غير مصدّقة، رافضة الاحتمال الوحيد الذي يمكن أن يفسّر مشهداً ألفناه للقطط وليس لبني البشر.

أخيراً، نجَحَتْ في التعلّق بحافّة الحاوية، فغاص نصفها العلوي داخلها بينما تدلّى نصفها الآخر خارجاً، دقائق ثم تخرج وفي يديها كومة صغيرة، تنتحي بها ركناً قصيّاً، تفترش الأرض قرب سور منزل قريب لتنكبّ كطائرٍ على صيدٍ اقتنصته، تفتش بعناية بين الفضلات عما يسدّ رمقها.

غصّ قلبي بالحزن وأنا أتأمّلهما... كومة قماش أسود هزيلة قرب كومة مهملات، بقايا إنسان وبقايا طعام، كلاهما مرميّ على حافة الطريق.

يدان تقلّبان حفنة القاذورات وتعبثان بملامح وجه الدنيا، تهشّمان شيئاً ما في داخلي...

كان المشهد مخزياً... مهيناً للإنسانيّة، تضاءلتُ... وبدا الكل صغاراً، أين المجتمع المتحضّر؟ أين تراكم جهود وعقول مسيرة ما لا يُحصى من البشر قبلنا؟ دماؤهم... دموعهم... تضحياتهم في سبيل رقيّ الإنسان وكرامته ورفاهيّته؟ كيف يقبل عقل من جاب آفاق الفضاء وغزا مجاهل الذرّة أن يرزح ثلث معاصريه تحت دائرة الفقر؟... ملياران من أصل ستّة مليارات إنسان يعانون... ينامون جائعين، معظمهم محروم نعمة المعرفة، وغالبيّتهم يحلمون بمياه شرب لا تسبح فيها الأوساخ والأمراض...

امتزج الخجل بالغضب وأنا أفكّر بما تشرّبناه من قيم تعاون وتكافل، وبحديث الرسول (ص) «ما آمن بي من بات شبعان وجاره جائع وهو يعلم»، تناقلناه ألفاً وخمسمائة سنة... ألا نطبّق ما حفظناه عن ظهر قلب ؟.

ترجّلتُ باتجاهها...

منكبّةً على ما ظفرت به، لم تلمحني في البداية، ولكنها –وقد دنوتُ– رفعتْ إليّ نظرة خوف، تكوّمتْ أكثر ملتصقة بالجدار خلفها، تململتْ بقلق من يودّ الهرب، من هذا القرب كان بوسعي تبيّن تفاصيل وجه حفرته أخاديد القهر وكساه الجوع بالشحوب.

حاولتُ رسم ابتسامة مطمئنة فوق شفتيّ وأنا أدسّ في يدها ما أرسله الله لها عبري، خُيّل إليّ لوهلة بريق من الفرح وعدم التصديق يعبر قسماتها، لكنها سرعان ما استعادت قناعاً خالياً من التعابير ..

توقّف الزمن وكل منّا يحدّق بالآخر، تبادلنا حديثاً طويلاً ذا شجون دون أن ينبس أيّ منّا بكلمة... بعدها، لم أدرِ من منّا الذي بقي متسمراً خلف كومة نفايات صغيرة يتابع آخر أدار ظهره وغادر بتثاقل...

أدرتُ المحرّك لأنطلق ببطء وسط حنق أبواق سيّارات السائقين المنتظرين...

إلى أين وعيناها اليائستان تملآن كل الطرقات أمامي؟ ما أن ابتعدتُ قليلاً حتى انهرتُ بالبكاء... ما أقسى الحياة بل ما أقسى البشر... حقاً «لو كان الفقر رجلاً لقتلته»...

ذلك كان قبيل المغرب... منذ بضعة أيام، وبما أن الموقف مافتئ يتفاعل داخلي مذ ذاك، كان لا بدّ أن أكتب عنه كي أرتاح...

شغلني بعدها بشدّة هاجس عالم خالٍ من الجوع والذلّ، فكّرت في أهمية أن يمنح كل منّا ولو شيئاً يسيراً لتخفيف معاناة هؤلاء الذين يتألّمون... «ما نقص مال قطّ من صدقة»، وبضعة سنتات قد لا تعني لكم شيئاً لكنّها الحياة بالنسبة لأكثر من مليار شخص يعيشون على أقل من دولار يومياً.

أدرك أنه ليس حلّاً شافياً لمشكلة الفقر، لكن الإمام علي كرّم الله وجهه يقول: «عجبتُ لمن يرجو فضل من فوقه كيف يحرم من دونه"، وأبو ذر الغفاري يقول: "عجبتُ لمن لا يجد القوت في بيته كيف لا يخرج على الناس شاهراً سيفه ؟»، إذاً، من لا يفعل شيئاً ضدّ الفقر من باب الرحمة فليفعله من باب الحكمة، كي يستمرّ توازن المجتمع ويتجنّب الهزات العنيفة، أليس الفقر أبا المصائب ومفجّر الثورات؟ ألا تدفع الحاجة كثيرين إلى الحقد والتمرد على مجتمع لا يؤمنون بعدالته؟.

مقاومة الفقر ضرورة ملحّة... تتطلب جهود الدول والهيئات والمؤسسات وسنّ القوانين التي تحرص على التوزيع العادل للثروة... من قبل سلطة تنظر إلى الحياة من زاوية الحقّ والمساواة في الحق... وهل هناك حقّ أهم من حقّ الحياة؟، الحياة –لا المال– أولاً... صيحة من يعلن تمرّده على الفقر وأسبابه...

هي مسؤولية الجميع... وجريمة جشع قلّة لا تهتمّ إلا بالربح ولو فوق أشلاء غالبية مطحونة... ولا ترى العالم إلا من زاوية تراكم المال، لا يكفي أن نعلن ١٧ أكتوبر أو غيره «يوماً دوليّاً للقضاء على الفقر»، فلنعتبر كل يومٍ يوم قضاء على فقر بات يستشري في كل مكان... حتى في بلاد الأغنياء، بعض الناس لا يبصره لأن من يكابرون «يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ»، وبعضهم لا يشعر به لأنّه يعيش في عالمه لا يدري أو ربما لا يريد أن يدري بما يجري في الطرف الآخر من المدينة، منطقه منطق الملكة ماري انطوانيت تجاه شعبها الذي لا يجد الرغيف «فليأكلوا البسكويت»، ولمن لا يعرف آخرتها، فالشعب الذي لم «يأكل البسكويت» دقّ عنقها الجميل في ثورة مازال صدى شعاراتها العظيمة يتردّد بعد مضيّ أكثر من مئتي عام.

أيّها السادة –قبل فوات الأوان– تصدّوا للفقر، وارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء.

أجملُ نساءِ الحيّ

تململ الرجل في مقعده أمام مكتبي، كأنّه يستأذن بالمغادرة، رفعتُ سمّاعة الهاتف أستعجل الرسومات التي ينتظرها، وحاولتُ أدباً أن أحدّثه ريثما تكون جاهزة .

ولأنّها المرة الأولى التي أقابله فيها، فقد كان غريباً أن يقودنا الحديث التقليديّ حول الطقس والصحة إلى... زوجته، لكنني لمحتُ المحبة تكسو تعابير وجهه وهو يقتنص فرصة ينتظرها للحديث عنها:

«تصغُرني زوجتي بعشر سنوات، وهي أجمل نساء الحيّ قاطبة، لدينا ثلاث بنات وثلاثة أولاد».

علتْ شفتيه ابتسامة رضا عريضة وهو يضيف: «تخرّج ثلاثة منهم من كليات الهندسة وثلاثة آخرون من كلية الآداب»... تردّد قليلاً قبل أن يضيف بخجل: «لست شاباً كما قدأبدو...»، ثم أردف بسعادة وفخر:

«ورغم أن زوجتي أميّة، لا تقرأ ولا تكتب، فإنّها من علّم الأولاد وأوصلهم إلى الشهادات الجامعية».

تابع بحماس وقد شاهد علامات الدهشة على وجهي قائلاً: «لطالما أوحتْ لهم صغاراً أنها تجيد القراءة والكتابة، كانت تمسك الكتاب متظاهرة بالقراءة بينما يتلو أحدهم الدرس، ولأنها أُمّ وتحفظ أطفالها عن ظهر قلب فقد كانت قادرة على التقاط اللحظة التي يتلكأ أو يخفت فيها صوته أو تبدو عليه إمارة عدم الثقة بما يقول، وكان ذلك مؤشراً كافياً للمرأة ذات الذكاء الفطريّ لكي ترفع يدها بإشارة التأنيب أو التهديد، ليعاود الولد التركيز على الدرس حتى يحفظه».

قهقه عالياً وهو يروي كيف اكتشف أولاده الحقيقة فيما بعد، حين طلب ابن الرابعة عشرة من أمه يوماً أن تساعده في حلّ مسألة الرياضيّات، ولم يفلح تعذّرها بانشغالها أو آلام رأسها في إخفاء الحقيقة.

كان معجباً للغاية بما صنعته زوجه... وكذلك كنتُ أنا...

هاهي الأوراق المطلوبة أخيراً... يحملها أبو هشام ويمضي بعد أن أودّعه، مصرّة بصدق أن ينقل إعجابي وتقديري لأمّ هشام... امرأة لا أعرفها، ولكنها نموذج لكثير من الأمّهات اللواتي –وإن لم تتح لهنّ فرص التعلّم– كافحن بجدّ لإعداد «شعب طيّب الأعراق»، ووصلن بأبنائهنّ إلى أعلى مراتب العلم والنجاح، فكنّ بخبرتهن ووعيهن أكثر عطاء أحيانا من بعض مَن تعلّموا.

بعدها... ألحّ علي التساؤل: «هذه المرأة الجبّارة التي أنجزتْ ما أنجَزَته بأميّتها، ترى ماذا كانت لتفعل لو تعلّمتْ... أي انجازات وأي نجاحات؟...» الله أعلم.

إحدى الإجابات الخبيثة والساخرة قد تكون في حادثة حقيقيّة كنتُ قد قرأتُ عنها... أرويها لكم ختاماً:

التقى سياسيّ عربيّ كبير –وكان أميّاً– بنظيره الأجنبي، وأُخذ المترجم الأجنبي بحدّة ذكاء السياسيّ العربيّ ونجاحه في إدارة المفاوضات لصالح بلاده، وفي استراحة جانبيّة بادر المترجم الأخر قائلاً «أنا معجب برئيسكم، خسارة أن هذا الرجل العظيم أمّي، تصوّر ماذا تراه كان سيصبح لو تعلّم... أيُّ مجد كان ليصل»؟، أجابه المترجمُ العربيّ ببرود: «كان سيصبح مترجماً مثلنا».

وبعد... هذا ليس تشجيعاً للأميّة، فإذا كانت موهبة بعضهم تعوّض ما فاتهم من تعلّم، فإنها لا تكفي لمواجهة الحياة، ولكن... ألا يجب إعادة النظر في التعريف المنصف لكلمة «الأميّة»؟.

الأميّة –أيها السادة– ليست مرتبطة حصراً بعدم إجادة القراءة والكتابة، إنّ للعلم والمعرفة معاييرَ وأشكالاً أخرى.

توليب بين الصبّار

لا أدري ما الذي أيقظني والليل في هزيعه الأخير... تسلّلتُ إلى مكتبي... أضأتُ مصباحي الصغير... وفكّرتُ أن أداوي أرقي بالكتابة...

ما إن لامس قلمي الورقة، حتى تجلّتْ أمامي...

لم تغبْ عن ذهني لحظة واحدة، منذ غادرتها ظهر أمس... موناليزا حيّة... عينان مملوءتان بالحزن وابتسامة حفرتها السنون على وجه ما زال يشكو آثار بكاء طويل...

عند الباب... استقبلتنا القامة الدقيقة للسيّدة الستينيّة، رحّبت بنا بصوت قويّ دائم الاحتداد... يعكس بقايا كيان مزّقته صرخات احتجاج موؤودة.

ما إن تلج عتبة بيتها حتى يصلك، من كل شيء فيه، ما يعتمل في داخلها، كمّ هائل من التفاصيل والألوان، من الرسومات والزخارف... تعكس ما جاش طويلاً في أعماقها.

أكثر ما أتمثّله منها الآن عينان حانيتان... تنضحان مرارة، مازالتا تتقدان حياةً، رغم أن كل شيء آخر فيها انطفأ... تثرثران –حتى في صمتها– دون انقطاع... تبوحان بهواجس أحلام لم تتحقّق، ورغبات لم تخمد، وأسى الحنين إلى ما لا يعود.

كمّ القهر، الذي ملأ المكان ما أن بدأتْ بسرد قصتها، غمرني بالرهبة...

لم يبق لها من الشباب إلا الغصّة وعذاب روح توّاقة... سجينة جسد لا يستطيع مجاراتها، ومرارة من فهم الحياة وأدرك أبعادها... بعد فوات الأوان.

كانت وردة يانعة، يوم أصرّ الضابط الشاب أن يقطفها، لم تفلح ممانعة والدها الذي كان يراها «جديرة بملك»، ولم تأبه يومها كثيراً، هي البنت المدللة ابنة الذوات، بالفوارق الشاسعة بينها وبين البدويّ الصلب المزهو بنفسه، المتشبّع بمفاهيم بيئته، الذي لن يترك له طموحه الوقت ولا تربيته الأسلوب «ليحبها كما تشاء».

دفعتْ غالياً ثمن تحدّيها الجميع للزواج منه، حينما اكتشفتْ بُعد الواقع عن الحلم، وواجهتْ، فوق الفقر والغربة، عائلته الملتصقة به بشكل مَرَضيّ، لا سيّما والدته التي كانت تراه –على حدّ تعبيرها– «شجرة زرعتها ويحقّ لها أن تستمتع بجني ثمارها».

ورغم أن زمنها لم يؤمن بأن للمرأة صوتاً، ولا حقّ الحلم بالحرية، لكنّها عاندته، أصغتْ لنداء الحياة المتفجّر في قرارتها، وحزمت حقائبها لتعود من حيث أتتْ.

بخفّي حنين رجعتْ إلى حضن عائلتها وعملها، كان أملها أن تبدأ من جديد... لكن المجتمع القاسي –سيّما حينها– لم يكن ليعطي المرأة فرصتين، ولم يكن ليقبلها إلا من خلال رجل، واضطرت الفرس الحرون تحت ألم سياط الواقع للعودة إلى حظيرتها .

تتنهد وهي تروي القصة... كأنّ تفاصيلها جمرات ما فتئت تتلظّى داخلها طُوال تلك السنين...

أربعون عاماً مضتْ منذ عادت إليه منكسرة، مُفرغة من الأحاسيس والأحلام، تدرّج الضابط خلالها من نجاح إلى آخر، في عمل لم يعشْ إلا له، وأفرغ فيه قبل أن يتقاعد آخر قطرات عطائه...

اتّسعت –في الأربعين عاماً– مسافات ضوئية فصلتْ بين شريكي البيت الواحد... بقي كل منهما مشدوداً إلى عالمه وبيئته ونسيجه النفسيّ الخاص... وفي كأس «التعايش» و«المسايرة» والموت البطيء... ظلّ الزيت زيتاً

والماء ماء... لم يذب أي منهما في الآخر، وها هي الحصيلة، مرارة خواء... وثلاثة أولاد... وبقايا رجل يحتضن أوسمة قايضها بعمره وعمر من أمستْ حطام حلم في حطام امرأة...

أفرغتْ «رجاء»، خلال تلك السنين الطويلة، مشاعرها المكبوتة في لوحات رسمتها... غطّتْ بها وجه بيت لم تشعر يوماً أنّه مملكتها، سجّلتها شهادة على حياة وُئدتْ، وفوق الستائر وأغطية المقاعد الأنيقة... طرّزتْ أصابعها حزن ساعات الوحدة الطويلة... أنينِ زهرة توليب نبتتْ خطأً بين شجيرات الصبّار.

حينما قاربت الساعة الثانية، ودنا موعد مغادرتنا... قررتْ أن تصمت فجأة دون مقدمات كما بدأت، انطفأ – بقرار منها – بريق أضاء عينيها حينما حدّثتنا عن صباها، خبا وجهها الذي شعّ شباباً وألماً في الساعتين الماضيتين، لتعود «رجاء» إلى سنّها الحقيقي...

أغادرها وقد أرهقتني المسافات الطويلة التي مشيتها في مساحات حزنها، جلدتني نظراتها الحسرى على شباب حُرمته، نخرتْ قلبي أنّات لم تشخ... لروحٍ عشقتْ الحياة، أرادتْ أن «تكون»، لكنها ذبلتْ بين أسوار الظروف وسجن الأعراف.

ما كان أقسى أن تشهد بصمت احتضاراً بطيئاً لمواهبها... تلك التي بزغتْ إلى الحياة شابّة واعدة متوقّدة الذكاء، متنوّعة الثقافة، تلك التي طالما أشعلتْ بيت أبيها حياة، بصوت شجيّ لا يملّ الغناء، برقصٍ متواصل بين جنباته، كيف تحوّلتْ من باقة أحلام إلى طلل؟.

صفحات طويلة كتبتُها عنها، ذيّلتُها بكلماتٍ أظنُّها تلخّص مأساة «رجاء» –وكثيرات غيرها– «يقتلها رفضها لواقع ذبحها أصلاً قبولها به».

شجونُ عربيّةٍ...

أنقذوا الهُويّة . . .

أيّها السيّدات والسادة... أدعوكم لإنقاذ الهُويّة...

يقولون: «من ليس له قديم... ليس له جديد»، وبالعامّية «من فات قديمه تاه».

وقبل أن تفهموني خطأ، هذه ليست دعوة إلى التقيّد الأعمى بالقديم، بل لفهمه بعمق واستنباط عبره ودروسه، لاستيعاب تعايش الأصالة والمعاصرة، أن يكون هذا المخزون الزاخر نقطة انطلاق للتحليق نحو الجمال والإتقان، لا قيداً يكبّلنا أو قانوناً تعسفياً يمنعنا من التعامل مع كل جديد، و شتّان بين أن يجعلنا الماضي أسراه وبين أن نجعل من روحه الملهمة نواة للإبداع والتفرّد.

أهيبُ بكم أن تنقذوا الهُويّة...

فقد بدأتْ معالمها تبهتْ أو تتغيّر تحت وطأة الضغوطات المختلفة، باسم «العولمة» و«الحداثة» و«المعاصرة» و«التكنولوجيا»... حتى صار كل جيل يعرف عنها أقلّ من سابقه، كأن من يموتون يأخذون معهم بعضها، سيّما في غياب ثقافة التوثيق.

الهُويّة التي تكمن في أدق تفاصيل حياتنا... في رقرقة ماء النوافير... في زخارف المشربية وعلى سجّادة الصلاة وأطراف أثوابنا... تتسلل من طعامنا... وأمثالنا... وأغانينا القديمة التي لا نذكر من أين عرفناها... تختبئ في أصغر خطّ رسمه الزمن فوق الجدران العتيقة... على زجاج الكنائس ومآذن المساجد ونقوش الحليّ... تنبسط بين منحنيات حاراتنا وبيوتها المتعانقة... وتنساب مع أريج الياسمين والفلّ والورد الدمشقيّ... بل وحتى رائحة السمن البلدي... نُطرب لصداها في نداء الباعة كما نصغي له بخشوع في صوت المؤذّن الدافئ الآتي من داخلنا... تذوب بين حنايا عقلنا الباطن.

أليس محزناً ومثيراً للقلق أنّ العديد من عاداتنا أخذ يختفي؟ طعامنا فقد نكهته، لباسنا وشؤون حياتنا تفرضها أفكار أمم أخرى، عمارتنا أُفرغتْ من مضمونها واستُبدلت بأخرى مشوّهة مجتثّة من جذورها، لغتنا اخترُقت وهُمّشت، تاريخنا عرضة للنهب والتزوير، أراضينا استُبيحت ووُزّعت بوعود بين من لا يملكونها، نسينا مشيتنا ولم نتقن مشية الطاووس، ورويداً رويداً تفقد ملامحنا شكلها المميّز لنصبح «لا أحد»، وحينما لا نكون «أحد» لا نحتاج أن ندافع عن وجود «أحد»، وأيّ سلاح أمضى لمحاربة أمّة وإبادتها من محو ذاكرتها وهويتها وكيانها المستقلّ؟.

التراث التراث، فهو أمانة تاريخيّة في أعناقنا... والتعامل معه يتطلّب وعياً ومعرفة ورؤية واضحة، إذ ليس كل قديم تراثاً، ما ننشده في هذا الإطار يقابل مفهوم الانتقاء والإبداع، أن نعرف كيف وماذا نختار مما يزخر به التراث من قيم صادقة مازال الكثير منها حيّاً وصالحاً للاستمرار، ثم إعادة استخدامه بشكل خلّاق ليواكب متطلبات العصر.

لقد خلص التراث –وهو تراكم خبرات آلاف السنين وعصارة تجارب ومعاناة ملايين الناس– إلى حلولٍ مبدعة من وحي الطبيعة والمناخ والبيئة والثقافة والتقاليد، وكلّما توغّلنا في شراييه أدركنا جهلنا به، واستطعنا أن نحدّد موقفاً أوضح مما يدعى «العولمة»، التي تأتي لتلغي أسماءنا ولون أعيننا،

محاولة إقناعنا بأن الحداثة تعني استيراد مفاهيم الآخرين وطريقة تفكيرهم، تقليد سلوكهم وأسلوب بنائهم، تجعلها مرادفاً للتنكّر للقيم والسير في ركب الموجات الحديثة دون فهم لأبعادها.

وحتى لو تعاملنا مع العولمة بحسن نيّة، وبرّأناها معتبرين أننا أسأنا فهمها، واقتنعنا بأن رسالتها هي فعلاً المساهمة في خلق حوار بين مختلف الأمم والثقافات، فكيف لنا أن نكون طرفاً مسؤولاً قويّاً فيه، دون أن نعي من نحن فنمسك بنواصي هُويّتنا ولغتنا، كي لا نذوب في الآخر ولغته ومفاهيمه؟

كلمة حقّ تُقال –أضعف الإيمان– دفاعاً عن حقنا في الوجود والاستمرار:

«أيها السيّدات والسادة... أنقذوا هُويّتنا... قبل فوات الأوان»...

ألا هل بلّغت... اللهم فاشهد.

حين تَحكُم المرأة . . .

«أُوتيَتْ من كلّ شيء»... هكذا صوّر القرآن الكريم بلقيس ملكة سبأ، وهل أبلغ وأعظم من ذلك وصفاً تظفر به امرأة عبر التاريخ؟

بعد ثلاثة آلاف سنة من رحيلها، يبقى هذا الوصف تاجها الحقيقيّ الخالد، أثمن من كنوز مملكتها، وأعظم من سلطانها وعرشها الشهير، وبه خُلِّدت بعد أن زالت مملكة سبأ وتتالت فوق أنقاضها الممالك والدول.

ملَكَتْ بلقيس سبأ بعد أبيها الهَدهاد، الذي جمع وجوه مملكته حين حضرته الوفاة ليسلّمها الحكم قائلاً: «إني رأيتُ الرجال، وعجمتُ أهل الفضل وسيرتهم، وشهدتُ من أدركت من ملوكها، فلا والذي أحلف به ما رأيتُ مثل بلقيس رأياً وعلماً وحلماً».

والحادثة الأشهر في حياة تلك الملكة اليمنية التي تجاوزتْ مسرح أحداثها، وتناقلتها الشعوب بروايات متباينة، واستلهمتها روائع إبداعات الفنانين الأوروبيين في عصر النهضة مثل رافائيل ورويموندي وجبرتي، هي حكاية زيارتها سليمان بن داود.

وقد شهد لها القرآن الكريم أنّها كانت من أوائل دعاة الديمقراطية وحكم الشورى في التاريخ، حينما أورد أنها استشارت قومها في الردّ على الهدهد الذي يُقال إنّه جاءها بدعوة سليمان قائلة: «يا أيها الملأ، أفتوني في أمري، ما كنت قاطعة أمراً حتّى تشهدون».

أما وقد أفتوها بالقبول، فيُروى أنها دخلتْ بيت المقدس بجِمال تحمل اللبان والطيوب والذهب والأحجار الكريمة، فأحسن سليمان وفادتها، وفي الرواية: «وبهرها بحكمته وقوته وعجائب ما تصنع الجنّ له»، وقيل إنّه تزوجها وولدت منه ولداً اسمه (رحبعم)، وقيل إنّه زوَّجها ذا بَتَع من همدان وردّهما إلى اليمن، حيث بُنيتْ لها ثلاثة قصور مذهلة: غُمْدَانَ وسِلْحِين وبَيْنُونَ؛ في منطقة مأرب التي شهدتْ تألّق حضارة سبأ العظيمة.

حكمتْ بلقيس دولة قوية، بنتْ السدود وزرعتْ الأرض، وفتحتْ آفاق المعرفة في مختلف العلوم والفنون والآداب، حتى شبّهها القرآن الكريم بالجنة «لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنّتان عن يمين وشمال»، ويعدّد الهمذاني في «الإكليل» أنواع المزروعات الكثيرة التي كانت موجودة في اليمن حينها ومنها عشرون نوعاً من العنب، مركّزاً على عبقرية اليمنيين في إنشاء السدود والصهاريج والخزانات، خاصة سد مأرب الشهير، الثورة الهندسيّة في تفكير الإنسان في الألف الأول قبل الميلاد.

أنْصَفَ اليمن، موئل الحضارات، المرأة حينما خلّد تاريخه بعض النساء العظيمات ملكات، كبلقيس وأروى...

وأروى –بالمناسبة– كانت زوجة الملك المكرم الصليحي، الذي أعاد توحيد اليمن، وأقرّه الخليفة الفاطمي المستنصر بالله على الملك، وبعد تدهور علاقته بمركز الدعوة في مصر، وإصابته بالفالج، اعتزل الحكم لصالح زوجته سيّده بن أحمد (أروى) التي اتخذتْ من ذي جبلة عاصمة لمملكتها .

وليتذكّر دائماً بعض الرجال ممن لا يقرّون لزوجاتهم حتى بحقّ التفكير وإبداء الرأي، أنّه – قبل ألف عام – وحينما لم يكن العالم الغربي مضاءً بأنوار العلم وبهاء المعرفة، ولم يكن الإنسان قد غزا بعقله وتطوّره الفضاء بعد، أدرك الملك الصليحي، والذي لم يدرس في جامعات أوروبا وأمريكا، أن الذكاء ورجاحة العقل والقدرة على تسلّم المسؤولية وحكمة القرار، كلّها ليست خواص ذكورية حصراً، وكم نترحّم اليوم على روح ذلك الرجل الواعي حين نسمع بعض أبناء جنسه يتشدّقون بمقولتهم السخيفة عن النساء «الرؤوس الجميلة... دوماً فارغة».

المهم، أن جدّتنا أروى أصرّتْ على حقّها بالملك بعد وفاة زوجها وابنها، ودخلتْ في سبيل ذلك بصراع مع سبأ بن أحمد مظفّر الصليحي ابن عمّ زوجها، فتدخّل الخليفة الفاطمي المستنصر في مصر وكتب إلى سيّدة يقول: «قد زوّجتك بأمير الأمراء سبأ على مائة ألف دينار»، وأنهى الخلاف بتزويجهما زواجاً ظلّ صورياً، واضطر سبأ بعده أن يتعاون معها، وقامت الملكة الحكيمة لنصف قرن (وهي أطول فترة حكمها ملك صليحيّ) بما شُهد لها من البأس والذكاء والحضور القويّ، بتدبير شؤون حكم بلادها في السلم والحرب.

السيرة المشرقة لملكات كبلقيس وأروى وزنوبيا ونفرتيتي وكليوباترا وشجر الدرّ وغيرهن... تحرّض فيّ السؤال: إذا كنّا نحن نساء اليوم –وضمن تسهيلات العلم وكماليّات تكنولوجيا القرن العشرين–مرهقات بطموحات شخصية بسيطة، نعاني صعوبة التوفيق بين مسؤوليات أعمالنا وبين واجبات عائلية لا تنتهي، وأين هي من أعباء الحكم وجحيم الصراعات السياسية ودسائس ومؤامرات القصور وثقل هموم إدارة البلاد والعباد التي كانت خبز تلك الملكات اليوميّ، فمتى كنّ «جلالتهنّ» يجدن الوقت ليستمتعن بممارسة دورهنّ الطبيعي ونعمة إنسانيتهن في ملاذ العائلة وواحة الأصدقاء ودفء التفاصيل الحميمة؟.. وهل كانت لهنّ أبداً حياة خاصة؟.

أجل كنّ عظيمات وجبّارات وخلّدهنّ التاريخ بعد مماتهنّ... ولكن –في حياتهنّ– هل كنّ حقاً سعيدات؟.

اليوم، في سائر بلدان العالم، تتبوّأ المرأة مختلف مواقع المسؤولية والقرار وأعلاها، رئيسة ورئيسة وزراء ووزيرة وسفيرة ومديرة وعالمة ورائدة فضاء وقائد طائرة بل وسائق حافلة أيضاً... لم يبقَ أيّ منصب عصيّاً عليها...

أمر مُفرح وانجاز تطلّب جهود وتضحيات أجيال من النساء الواعيات، نصفّق له مشجّعين؟... طبعاً، لكن بشرط أن لا تسمح، وهي الكائن الرقيق الذي استلهمته الطبيعة من روحها وأبدعته على شاكلة عطائها المتدفق، لأيّ مملكة أو مسؤوليّة، أن تحرمها العرش الذي لا يضاهيه عرش آخر... أنوثتها... جنّتها الأرضية...

لا . . . للسلاح

هل سمعتم بحملة نزع السلاح في اليمن؟... الدولة تشتري أسلحة المواطنين وتمنع دخولهم المدن بالسلاح، أمر ايجابي... بل ضرورة ملحّة في بلدٍ يتداول مواطنوه وقبائله أكثر من ستّين مليون قطعة سلاح ناري، تتنوّع مابين المسدس الصغير والمدفع، بينما لا يزيد عدد سكّانه على بضعة وعشرين مليون نسمة، أي بمعدل قطعتين إلى ثلاث قطع سلاح للشخص الواحد.

وعلى ذمّة قناة العربية التلفزيونية، فإنّ ما يزيد على ٢٠٠٠ شخص يموتون سنوياً في اليمن بأسلحة الثأر، و يموت ما يفوق هذا العدد من جرّاء سوء استخدامها، بطريق الخطأ أو في لحظات الغضب أو الطيش، وحين يقبع الزناد تحت أصابع غير مسؤولة ولا واعية، تصبح حياة الإنسان أرخص من ثمن رصاصة.

وبحسب أعراف القبائل، يحقّ لعائلة القتيل مطالبة القاتل وقبيلته بدفع «ديّة» (فدية) كتعويض يحقن الدماء ويوقف سلسلة الثأر، ينسى بعدها الطرفان ما حدث، وطالما حيّرني –خاصة لدى اليمنيين– هذا التناقض المدهش ما بين منتهى العنف ومنتهى الطيبة، بين التلظّي بأحقاد الثأر والقدرة العجيبة على التسامح الفوريّ .

كم يبدو الأمر مهيناً لعقل الإنسان وروحه وكرامته!، ذلك الإنسان الذي تراكمتْ حيوات عدد لا يحصى من الأجيال وخبراتهم وتضحياتهم لتقدّم له قطرات العلم والمعرفة، ليحلّق برقي في سموات الفنون والآداب والموسيقى والعلوم، فينتشي الكون إزاء كل تفتّح جديد له على عوالم الإبداع

والاكتشاف، كل ذلك تصرعه ضغطة يد جاهلة على زناد ميت... دون سبب... وإذا وُجدت أسباب فكلّ منها ينافس الآخر تفاهةً، خلاف على شبر أرض أو حفنة دراهم، كلمة جارحة أو حتى إشارة مهينة... والأمر برمّته مرفوض ومستهجن مهما كانت الأسباب.

في قصيدته «الثأر»، وبلهجته البدوية المحببة، يجسّد الشاعر عمر الفرا بشاعة الثأر، حين يروي قصة كلب قُتل في مكان ما، وفي اليوم الثاني قُتل رجل، كان ذنْبُه أنه ابن عمّ قاتل الكلب، وعلى لسان القتيل المحتضر في لحظات موته الأخيرة قال:

قَلِّي عَ روحَكْ!
وخَنْجَرو. . . بْصَدْري دَخَل
وأصيح بْوَجْهُو . . . خَبِّرني!
على أي شَيْ . . . جايي تِذبَحْني؟!
على مَيَّه؟ على ناقه؟
عَشَان بْنَيَّه . . . عَشَّاقه؟!
لا لي عِلِم! لا لي خَبَرْ!
لا لي خَصيم . . . مْن البَشَرْ!

ويختم القصيدة الطويلة بقوله:

نِسيتْ اخبّرِكْ: الخنجر لقيتو . . . . مُو بَعيْد عَنِّي
ولَقيت بْنَصْلِتو. . . مِيْلَهْ أَظنُّو. . . بِعْتِذِرْ مِنّي!!

وليس فقط في اليمن، بل مازال صدى قضايا الثأر يتردد في صعيد مصر، وفي ريف سورية يقولون «السلاح زينة الرجال»، ومازال لدى الأردن والعراق وغيرها من الدول ذات المجتمعات القبلية قوانين متساهلة تراعي أعراف الثأر وتجذّره في عقول مواطنيها، وتخفف الأحكام عن القتلة –وتساهم في ابرازهم أبطالاً– بحجّة «فورة الدم» وتحت اسم «جرائم الشرف»، بينما يناضل العاقلون لإلغاء هذا النوع من القوانين المهينة للإنسانيّة.

السلاح وبال أينما وجد، وبسبب انتشاره بين المدنيّين، يستيقظ الأمريكيون كل صباح على حادث مؤلم جديد، هل تذكرون قصّة الطفل الذي قتل أخاه الصغير بمسدس كان جدّه قد خبّأه تحت وسادة المقعد؟، ورغم تواتر مثل هذه الحوادث المؤسفة، تتمسك جمعية «حاملي السلاح في أمريكا– American Rifle Association» بشعار «ليس السلاح الذي يقتل وإنّما حامله»، ويعتبرون أنفسهم مدينين للسلاح الذي حماهم ذات يوم من الهنود الحمر، فاتحاً طريق الغرب الأمريكي، وللجمعية –التي كان رئيسها الممثل شارلتون هيستون– نفوذها الكبير، وأعضاؤها –الذين انتقدهم مايكل مور بشدّة في أفلامه– يقفون ضدّ أيّ محاولة لنزع أسلحة المواطنين.

نستطيع طبعاً، في بلادنا العربية، أن نتفهّم أن السلاح كان في مراحل مضتْ جزءاً هاماً من ثقافة الرجل ورجولته وضرورة للدفاع عن نفسه وكرامته وتقليد يتحدّر من صلب عادات القبائل، ولكننا في عصر تغيّرتْ فيه المعطيات والمفاهيم واختلفتْ معايير القوة، وهناك نظام ودولة وقوانين يُحتكم إليها، لا شريعة الغاب أو منطق العنف.

وفي خطوة تدعو للتفاؤل، خصصتْ لجنة في الأمم المتحدة جهودها للحدّ من انتشار الأسلحة «الصغيرة والخفيفة، واعتمدت لذلك برنامج عمل رسمي عام ٢٠٠١م، مطالبةً دول العالم بتنفيذه، وحددتْ في العام ٢٠٠٨م موعداً لمؤتمر يقيّم مدى فعالية تنفيذ هذا البرنامج .

ختاماً... نادراً ما تُذكر قضايا الثأر دون أن يتوارد إلى خاطري قصّة جرتْ في اليمن قبل ثلاثين عاماً، حين أقدم رجل على قتل مدرّس لغة عربية يعمل لدى إحدى القبائل، وكان المدرّس المسكين مصريّاً، فماذا كان ردّ القبيلة المنكوبة؟.

المضحك المبكي أنها انتقمتْ في اليوم التالي بقتل مسكين آخر... مدرّس «مصري» يعمل لدى قبيلة القاتل!...

بعد ذلك كلّه... مَن لا يؤيّد نزع السلاح من كل مكان في العالم؟...

الحروب . . . هزيمة للإنسانية.

الحرب الوحيدة التي عشتُها عن كثب... كانتْ حرب تشرين الأول ١٩٧٣م، ورغم أنّي كنتُ طفلة صغيرة... لكن تلك الأيام حُفرتْ في ذاكرتي بشكل شديد الوضوح... ومازلتُ بعد كل تلك السنين، أعيش رعبها كلما مرّتْ في بالي... لاسيما لياليها الطويلة التي كنتُ أخشى ألا يلّوحَ لها فجرٌ ...

كنّا في الدور الأرضي من بيتنا حيث نقلنا والدي رحمه الله... «لأنّه أكثر أماناً» كما قال... محاصرين جميعاً في غرفة واحدة... أنام وأختي الكبرى ملتصقتين على «مرتبة» فوق أرض الغرفة، ندفن رأسينا بقوّة في وسائدنا هرباً من هدير المدافع والانفجارات... أطوّقها بذراعي بخوف كلّما تعالِى أزيز الرصاص... فلا أنام... ولا تنام... ولا أحد يمكنه أن يفعل ذلك قبل أن تعلن صفّارات الانذار انتهاء الغارة الجوية... فتغفو أعيننا المنهكة على آثار دموعها...

ومن يومها و أنا أكره الحروب... وكلّ ما يمتّ لها بصلة، السياسة... السلاح... الكتب والأفلام التي توثّق تاريخاً دامِياً... نشرات الأخبار، وحتى ألعاب الأطفال التي تتخذ المعارك والحروب موضوعاً لها... أقاطعها مقاطعة تامة... فالحرب مفهوم غير حضاريّ ولا انسانيّ، علينا إقصاؤه عن أذهان أطفالنا... ونفيه خارج عقولنا...

والحرب هزيمة لكل من يشارك بها... خاسراً أو رابحاً... ألا تترك قتلى وجرحى؟... ألا تخلّف دماراً؟... ألا تسحق تراكم سنين من الجهد والعطاء؟... ألا تحفر جروحاً لا تلتئم عبر الأجيال؟... عجيب إذاً كيف يجرؤ أحد في النهاية أن يزهو فوق هذا الخراب المريع ... ليقول: «أنا المنتصر»...

خُلقنا لنرتقي... لنقترب من الكمال... لنسمو مع المعرفة والعلم... إلى رفاهيّة الإنسان... كائن اللّه المفضّل... لا لننحدر إلى مصافّ الكائنات الدنيا وطريقتها في حلّ خلافاتها... والحصول على أهدافها...

ألم يميّزنا الله عنها بالعقل؟... الحرب تعني استسلام العقل... لأن الذكاء يجد دائماً طريقه إلى حلول سلمية... وبالتالي فالحرب «فعل غباء»...

والحروب القديمة قامت –في معظمها– لأسباب غبيّة وواهية...

فحرب داحس والغبراء المروّعة بين قبيلتي عبس وذبيان، أشعل شرارة نارها –التي احتدمت أربعين عاماً– سباق بين جوادين، «داحس» و«الغبراء»، وفازتْ الغبراء بالرهان (وهو مئة بعير) لأنّ صاحبها أعدّ كميناً للحصان داحس، لكن المحكّمين حكموا لداحس بالفوز بعد انكشاف المؤامرة، وكان ذلك السباق المشؤوم بداية حرب طاحنة لم تبقِ ولم تذر.

وبسبب عناد فتى يدعى «شيطان» (ويبدو أنه كان اسماً على مسمّى)، اشتعل قتال دامٍ في حضرموت بين قبائل كندة وجيش الصحابيّ زياد بن لبيد الأنصاري (عامل الرسول (ص) لجمع الصدقات)، وكان الأخير قد أخذ من شيطان ناقة اسمها «شذرة»، ووسمها بميسم الصدقة، فوافقه شيطان ثم ادّعى أنها لأخيه الذي ليست عليه صدقة، واشتدّ النزاع فتدخّل حارثة أحد زعماء القبيلة، فأمر زياد بسوق شيطان وأخيه وحارثة، ما أغضب قبيلتهم التي قررتْ محاربة زياد، فباغتها ليلاً وقتل من رجالها وأسر من نسائها وصبيانها، وجرّ ذلك حروباً طويلة مع عشائر أخرى من كندة، انتهت بحصار حصن النجير وقتل وأسر ما يزيد على ستّة آلاف منهم، والسبب في الأصل... ناقة.

والناقة أيضاً كانت سبباً في حرب البسوس المشهورة التي قامت بين قبيلتي «بكر» و«تغلب»، حين قتل كليب بن ربيعة التغلبي ناقة امرأة تدعى البسوس، فقتله جساس بن مرّة البكري ردّاً على ذلك، فقام أخو كليب الزير سالم بطلب ثأره، واستمرت الحرب أربعين سنة انتهت بانتصار بكر على تغلب وراح ضحيتها الآلاف.

وفي بداية القرن العشرين، وبسبب امرأة تدعى «شمعة»، اشتعلتْ حرب طويلة دامت أكثر من أربعين سنة بين قبيلتي الحسنيّ والميسريّ في دثينة في أبين جنوب اليمن!...

واحسرتاه على كل أولئك الذين فقدوا حياتهم وأحبابهم لأجل لا شيء...

وصحيح أن الأمر مختلف حيال من يخوض الحرب مضطّراً، دفاعاً عن مقدّسات أو حقوق –والذي أحترمه بالتأكيد– لكنها تبقى حرباً... تُجتَرّ نتائجها المؤلمة أجيال بعد أجيال... ولذلك أنحني اجلالاً لغاندي وأجلّ منطقه في اللاعنف... وأميل للحلول السلمية إذا تسنّت لي... وأؤمن أنه مهما بلغت خسائرها... تبقى رابحة...

أودّ أن أقف فوق أعلى قمة لأصرخ بأقصى صوتي... أيّها العالم... نحن شعب سلام... قدّم أسلافنا للعالم علماً ومعرفة وفنوناً وابداعاً وحضارة عظيمة ينحني لها التاريخ... ثقافتنا ثقافة سلام، لا تصدّقوا أكاذيب الإعلام الاسرائيلي... نريد حقّاً أن نعيش بسلام... وديننا علّمنا «إن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكّل على الله»... ولكنّه تعالى قال أيضاً: «وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحبّ المعتدين»، فالمشكلة فيمن لا يدعك تعيش فوق أرضك بأمان... وهل بوسعك أن تستغرق في رسم لوحة فنيّة رقيقة بينما يُقتحم باب دارك ويُضرب والداك ويُختطف أولادك ويُدكّ سقف بيتك؟...

أجل نكره الحروب... لكننا نكره أيضاً الظلم والعدوان... ولا نرضى بالضيم... وشاعرنا يقول:

نحن قوم نهوى العدالة للناس وفي الحرب إن ظُلِمْنا أُسودُ

ونـفكّ العُناةَ بذلَ قديرٍ وأمـامَ البـغـاةِ درعٌ حديدُ

نبكي . . . الضمير العربي

استرقتُ النظر إلى الساعة للمرّة العاشرة... حاولتُ أن أشغل نفسي بتقليب القنوات التلفزيونية... أغيّر رأيي وأشيح بوجهي بعد أن تحوّل التلفاز إلى أداة تعذيب في الفترة الأخيرة... منذ بدء نزيف غزّة...

أتناول سماعة الهاتف ثم أعيدها إلى مكانها... فلأنتظر قليلاً، لا شكّ أنها في الطريق...

أن أكون أمّاً، أمر ليس ممتعاً دائماً، جملتي العصبية تتمزّق بين مطرقة المسؤولية وسندان العاطفة، سيّما في مواقف كهذه، حين تتأخر ابنتي ولو دقائق عن موعد عودتها المعتاد إلى البيت.

فلأهدأ... ولأسمِّ بالرحمن... لا شك أنها باتتْ على مقربة .

وفي محاولة مني للاحتيال عليّ، أقنع نفسي بأن أسترخي في مقعدي المفضّل، وأمسك بالكتاب المشوّق الذي بدأت بقراءته قبل أيام...

عبثاً أحاول التركيز، لن أستطيع جمع شتات أفكاري حتى تصل، عسى المانع خيراً...

ألفتُ نظري إلى التراجيديا العالية التي بتُّ أواجه بها الأمور منذ فترة، وهل يستطيع الإنسان الطبيعي أن يمارس حياته بشكل اعتياديّ وهو يرى ويسمع المأساة المرعبة التي تحصل على بعد أميال منه؟ شعب يُباد بهذه الطريقة البشعة والعالم يتابع التلفاز وقد تبلّدت حواسه، كأنه يشاهد حلقات مسلسل تركيّ مدبلج ...

أخيراً... باب الغرفة يُفتح، ويطلّ وجه ابنتي من ورائه، أتنفّس الصعداء... الحمد لله...

أستعدّ لأعاتبها على التأخير، لكن وجهها الممتقع يستوقفني عن الكلام... أدرك أن ثمّة خطباً ما.

«ما الأمر؟»... أبادرها بجزع ... ترفع إليّ عينين واسعتين مليئتين بالدموع... ملامحها البريئة تتضح ألماً، قبل أن ترتمي في حضني وتجهش بالبكاء...

غار قلبي بين أضلعي وطفلتي الطيبة تنتفض بين ذراعيّ كطيرٍ مبلّل... حضنتُها بحنان... قبّلتُ رأسها مراراً وربّتُ على شعرها... أردتها أن تهدأ... أودّ أن أفهم.

من كلماتها المتقطّعة بين أنفاسها المتلاحقة وشهقات البكاء المرّ، فهمتُ أخيراً أنها وصديقتها شاهدتا على شاشة التلفاز أغنية مصوّرة تدعى«الضمير العربي»، تدور حول معاناة العرب في فلسطين والعراق والجولان وتعرض عشرات الصور الوثائقيّة التي تصوّر بشاعة الاضطهاد والتعذيب والظلم الذي يتعرّضون له... صمودهم الذي يثير الإعجاب... وعذابهم الذي يُدمي القلب... وكان الأمر أقسى من أن تحتمله ابنة الرابعة عشرة المتوهجّة إيماناً بالأشياء الصادقة المشرقة.

ألُفّها بحبّ... أطلقُ تنهيدة أسى وقد أُلجمت، أحزنني أن لا أجد كلمات لمواساتها... ففاقد الشيء لا يعطيه، ماذا أقول لها؟ وماذا نقول لهم جميعاً... أطفالنا الشاخصون إلينا بنظرات الحيرة والخوف والرجاء؟...

كيف نفسّر لهم صمت العرب وتجاهل العالم، والمئات العزّل يقتلون كل يوم بأحدث وأبشع وسائل التدمير في غزّة... المدينة الصغيرة الجريحة التي تستبسل في وجه مدٍّ جارفٍ من جبروت الشرّ الاسرائيلي... عملاق شرس يدوس بوحشيّة عصفور... ونحن –أمام جنون الطغيان– صامتون عن الحق... شياطين خرس...

كيف نسوّغ ذلك لهم؟ وكيف نطلب منهم أن يثقوا بنا أو يؤمنوا بأي قيم بعد الآن؟ وبماذا أطمئنها؟، على أي أرض نقف يا صغيرتي ومن يحمي ظهورنا؟ وما الأمل؟ ومن أين آتيك بألوان مستقبل زاهٍ؟.

أخشى أن أحدّثها عن قناعاتي، إذ لم أعد اليوم أقوى على الدفاع عنها كما مضى، فقدنا الثقة بكل ما هو سام... الحقّ والعدالة اللذان طالما ألهبا حماسنا وحناجرنا... أحلامنا أُرديت أشلاء بين أنقاض غزّة... والقهر كلمة لا تعكس إلا بعض ما نشعر به...

«إذا لم تستحِ فافعل ما شئت»، عبارة تختصر نذالة الصهاينة، وكذلك تفسّر أداء معظم السياسيين العرب الذين أعجب كيف يمتلكون جرأة أن يتحدّثوا بصفاقة عبر شاشات التلفاز –نفسها التي تنقل مشاهد الدم المسفوك وطوفان الموت في غزّة– يتحدّثون عن الحلول والخطط والاجراءات الدبلوماسيّة العقيمة، بينما تسبق الشعوب العربيّة حكوماتها بسنوات ضوئيّة من الشعور بالمسؤوليّة والتعاطف الإنسانيّ والقوميّ تجاه ما يحدث...

«سنقاتل حتى بالصرماية (الحذاء) ، صرخت امرأة عجوز ملتاعة، من قلب مدينة حوّلها الصهاينة جهنم، وحذاء في يد مؤمنة... أمضى من الطائرات والدبّابات الراقدة في أقبية التخاذل والجبن.

تمسّ قلبي مشاهد من حملوا حقائبهم الصغيرة محشوة بالأدوية والضمادات، وهرعوا ليتحدّوا البوابات المغلقة والمتاريس الشائكة، يخاطرون بحياتهم محاولين التسلل إلى قلب المعركة كي يساعدوا بما استطاعوا –على قلّته– إيماناً بالحق ودفاعاً عن الوجود وحفاظاً على ماء الوجه... و«البحصة تسند جرّة» كما يقول المثل... كان الله معهم.

في أوبريت «الضمير العربي» لازمة تتكرر:

ماتت قلوب الناس ماتت بنا النخوة

يمكن نسينا في يوم أنّ العرب أخوة

أعانقها ونبكي معاً... صغيرتي أبكتها أغنية «الضمير العربي»، وأنا... أبكي الضمير العربي ذاته...

الفهرس

مقالات أم مشروع رواية؟ ٢
الكون . . . من نافذتي ٣
وهجُ رُوح ٦
وحنينُه أبداً لأول منزل ٧
جدّتي «دريّة» ٩
رحيله زاده اقتراباً ١٢
لأننا نحبّه ١٣
أميرتي الصغيرة ١٥
هواجس أُمٍّ طموح ١٧
بوّابةُ الزمنِ الجميلْ ١٩
حنين ٢١
سطورُ محنة ٢٤
سطورُ محنة ٢٥
فيضُ الخواطر ٣٣
مكمنُ الحقيقة والحلم ٣٤
المدينة التي تسكنني ٣٧
العمارة المؤدّبة ٣٨
«مصباح علاء الدين» . . . المعاصر ٤٠
المعماريّ الأعظمْ ٤٤
الحياة حلوة . . . «بس نفهمها» ٤٥
وأما الزبد فيذهب جُفاءً ٤٧
المرحومون . . . إلكترونياً ٤٩
الموسيقى. . . لغة الآلهة ٥١
وحيُ صور ٥٦
علاج أم عقاب؟ ٥٧
يغيبُ البصر وليس القلب ٥٩
الوجه الآخر للحضارة ٦١
أجملُ نساءِ الحيّ ٦٣
توليب بين الصبّار ٦٥

شجونُ عربيّةٍ... ..... ٦٧
أنقذوا الهُويّة ٦٨
حين تَحكُم المرأة ٧٠
الحروب . . . هزيمة للإنسانية. ٧٤
نبكي . . . الضمير العربي..... ٧٦
الفهرس ٧٨